كتاب الأمة
سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر
دولة قطر
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
أوقاف AWQAF
الإدارة العامة للأوقاف
General Directorate of Endowments
العدد: ١٨٠ جمادى الأولى ١٤٣٩هـ السنة الثامنة والثلاثون

حاجة الدعاة
لعلمي المقاصد وفقه الواقع

أ.د. أحمد محمود عيساوي

أحمد محمود عيساوي

* من مواليد الجزائر.
* دكتوراه دولة في أصول الدين، تخصص الدعوة والفكر الإسلامي، جامعة الجزائر (٢٠٠٢م).
* ماجستير في الدعوة والإعلام، الجزائر (١٩٩٣م).
* أستاذ الفكر والخطاب الدعوي والإعلامي الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر، باتنة (الجزائر).
* له الكثير من الكتب والدراسات المنشورة.. منها:

- الإعلان من منظور إسلامي.
- الحركات التجديدية في العالم الإسلامي.
- آثار الشيخ العربي التبسي.
- مدخل إلى علوم الإسلام والاتصال.
- منهجية البحث في العلوم الإسلامية.
- الإعلام الجديد وتداعيات الموجة الإلكترونية المعاصرة.
- الدعوة الإسلامية في قرن التكنولوجيات العولمية.
- رؤى استراتيجية لتجفيف منابع الإرهاب.

حاجة الدعاة لعلمي المقاصد وفقه الواقع

الأستاذ الدكتور أحمد محمود عيساوي

الطبعة الأولى

جمادى الأولى ١٤٣٩هـ

كانون الثاني (يناير) – شباط (فبراير) ٢٠١٨م

أحمد محمود عيساوي.
حاجة الدعاة لعلمي المقاصد وفقه الواقع.
الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠١٨م.
٢٠٨ ص، ٢٠سم – (كتاب الأمة، ١٨٠)
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ٢٠١٩/٤٢
الرقم الدولي (ردمك): ٩٧٨/٩٩٢٧/١٢٠/٤٦/٦
أ. العنوان ب. السلسلة

حقوق الطبع محفوظة

لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر

موقعنا على الإنترنت : www. sheikhali-waqfiah.org.qa
www.Islamweb.net
البريد الإلكتروني: E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

ما ينشر في هذه السلسلة يعبر عن رأي مؤلفيها

«هذا الكتاب وقف لله تعالى طبع على نفقة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، وهو يوزع مجاناً، ولا يجوز بيعه»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يقول الله تعالى:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(يوسف:١٠٨)

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

كتاب الأمة

مجلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر

- إعادة تشكيل العقل المسلم في ضوء معرفة الوحي.
- إحياء مفهوم فروض الكفاية وتأكيد أهمية التخصص.
- المساهمة في بناء النخبة الراشدة.
- إشاعة الوعي بأهمية المنهج السنني.

ثلث قرن من العطاء ...

قطر - الدوحة - ص.ب ٨٩٣ - هاتف : ٤٤٤٤٧٣٠٠ (٩٧٤+) - فاكس : ٤٤٤٤٧٠٢٢ (٩٧٤+)

www.sheikhali-waqfiah.org.qa - E-mail: M_Dirasat@islam.gov.qa

المقدمة

لقد صار من الضروري والآكد في مجالات ومضامين وميادين صناعة الخطاب الديني عموما والدعوي خصوصا الحاجة الماسة والأساسية لعلمي المقاصد وفقه الواقع، فهما علمان رئيسان لا يمكن الاستغناء عنهما البتة أثناء عملية إعداد وتكوين وتأهيل وتثقيف وتربية دعاة المستقبل، بَلْ هما: ركنان أساسان من أركان عملية التكوين والإعداد الفكري والمعرفي والمنهجي والقيمي والأخلاقي والتربوي الديني للدعاة وللقائمين على تشكيل وصياغة الخطاب الدعوي أيضا، بالإضافة إلى جملة من الأركان الرئيسة الأخرى المرتبطة بنجاح العملية وتسديدها والتي سنشير إليها أو سنتعرض لبعضها لاحقا.

فلا يمكن أن يُسِددَ هذا الخطاب الديني الدعوي أهدافه الخاصة والعامة والمتعددة بدقة، أو أن يصيب مراميه المنشودة والمسطرة له بفاعلية أو أن يحقق بعض أو جُلَّ أو كل غاياته الكبرى بتفوق ونجاح إذا كان القائمون على إعداده وتهيئته وتدوينه ورسمه وتوجيهه غير متمكنين منه علميا ومعرفيا، وغير متحكمين في كيفيات مَوَرانهِ السنني آليا واتصاليا، وغير متسامين روحيا ووجدانيا مع عروجه القيمي وتموضعاته وإشباعاته واستخداماته الحياتية الواقعية منهجيا وآليا، وغير مدركين وواعين لكل أدبياته ومكوناته وأصوله

وفروعه وتفاصيله: النظرية والعملية والتطبيقية، النفسية والانفعالية والشعورية، والواقعية الاجتماعية، والمادية والمعنوية والأدبية، والقيمية والأخلاقية والوجدانية والروحية والزمنية والبيئية والطبيعية؛ ذلك أن الاستواء الرزين، والتفقه العميق، والتمكن المتين، والتحكم الدقيق في غالبية مكوناته ومجرياته هو مطية النجاح والتوفيق والسداد.

يضاف إلى ذلك أن التكوين المعرفي والعلمي الجيد، والإعداد الأدبي والتعاملي الممنهج والمنضبط والدقيق والمباشر، والتحضير المرجعي والبنائي المسبق والمدروس والمخطط، الجامع لكل تفاصيل ومكونات وأبعاد ومناهج وآليات وكيفيات التفاعل الناجح والناجع والمؤثر في جمهور المدعوين، هو: السبيل الوحيد لتحقيق الفائدة المرجوة من هذا الخطاب الديني الدعوي، المؤسس على تراكم وتفاعل جملة من العلوم والمعارف والمناهج والخبرات، وعلى رأسها آليات وضوابط فقه علمي المقاصد وفقه الواقع، وفقه محل التنزيل، كركنين أساسين ورئيسين لصناعة خطاب ديني ودعوي ناجح، وصياغة –بفضل إحكامه– فرد وجماعة ومجتمع وكيان راشد.

وانطلاقا من رحم المكتبة الإسلامية العريقة والغنية بالتجارب والتراكم والخبرات والمعارف والعلوم، التي أثرتْ –عبر الزمن الدعوي الفاعل– الفهوم وأضاءتْ البصائر والرؤى، وحشدتْ سيول القراءات والأقوال وخلاصات العقول والنقول على آي القرآن الكريم وعلى القواعد الذهبية الضابطة للحياة السوية والمبثوثة في مصادر السنة النبوية المطهرة، وتأسيسا من رحم ما جادتْ

به قرائح ومعارج وقلوب وعقول السلف والخلف الصالح من مخلصي ومرشدي وقادة الأمة الإسلامية، صار من الآكد إدراك ومعرفة وفقه أهمية علميِّ المقاصد وفقه الواقع ومحل التنزيل في اصطفاء وترشيح هذا الخطاب الديني والدعوي الأكثر صفاءً ونقاءً وسلامة وسلاسة وتسديدا.

واعتبارا من هذا التشخيص والمقاربة التعريفية المبتسرة، وانطلاقا من هذه الرؤية القاعدية الجلية، وتأسيسا على أرضية هذه الأهمية والمكانة الكبرى لذينك العِلمين، فإننا سنسعى في هذا البحث الموجز إلى محاولة ومقاربة إظهار قيمة ومكانة وأهمية التمكن المعرفي والمنهجي والنظري والتجربي الواقعي من علمي المقاصد وفقه الواقع، وآفاقية نجاحه وتسديده.

وعليه، تدور تفاصيل هذه الدراسة الدعوية الوصفية التحليلية الاستنتاجية النظرية التطبيقية حول دور وأثر علم المقاصد وفقه الواقع في نجاح العمل الدعوي الإسلامي، وأثره البالغ في جذب جمهور المدعوين الحقيقيين والمتميزين بلينٍ وتُؤدةٍ إلى سماحة ويسر ورفق وسعادة الإسلام، ودفع بقية الجمهور الدعوي المستقبل من فئات المدعوين المرتقبين والمنتظرين والمحايدين والمنحازين والمشككين والمناوئين للاهتمام به والإحساس برسائله ومضامينه المتميزة.

كما تسعى هذه الدراسة لإبراز قيمة فهم أهمية وأثر ودور علم المقاصد وفقه الواقع ومحل التنزيل من خلال ممارسة الداعية للعمل الدعوي، وأثره الفعال

في نجاح وانتشار الإسلام بين جمهور المدعوين بمختلف أصنافهم وفئاتهم، تأسيا بكتاب الله، واقتداء بسنة رسوله الكريم ﷺ وعمل السلف والخلف الصالح من الأمة، ما يجعل علم المقاصد أرحب من تصنيفات «أبو إسحاق الشاطبي، ت ٧٩٠هـ» ومدرسته وتقسيماتها: (ضروريات، حاجيات، تحسينيات، وقواعد موازنات) ومن جاء من بعده، كـ «عبد الرحمن بن خلدون، ت ٨٠٨هـ» و«جلال الدين السيوطي، ت ٩١١هـ» في بعض إشاراتهما المقاصدية، وكـ «محمد الطاهر بن عاشور، ت ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م»، في كتابه القيم «مقاصد الشريعة الإسلامية» و«علال الفاسي، ت ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م»، وكتابه القيم «مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها»، فهي باب ومدخل من أبواب ومداخل الاجتهاد المقاصدي في مجال عملية الاتصال الدعوي[1].

- أسباب اختيار موضوع الدراسة:

يعود اختيار هذا الموضوع الديني والدعوي الحيوي لعدة اعتبارات، ذاتية وموضوعية وواقعية، فالذاتية والواقعية تنطلق من محاولة استكمال ما بدأناه من دراسة البناء الدعوي والإحاطة بكافة أركانه. والموضوعية تنطلق من حيث كون العمل الدعوي بحاجة ماسة إلى حكمة ومنهج ومقاصد القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وضبطهما الإلهي الدقيق لعملية تعيين مَحِلِّ نزول النص (فقه

(١) انظر: بهجت محمد عبد الله، مدخل إلى الاجتهاد المقاصدي، دار المعارف، الرباط، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ، وما كتب كل من: محمد الوكيلي وأحمد الريسوني وعبد الكريم حامدي.

التنزيل) في أقل دائرة ممكنة من الانحراف أو الخطأ، ليصل إلى جمهور المدعوين وفق مقتضيات ومقاصد وأهداف نزوله للناس عموما ولجمهور المدعوين الحقيقيين على وجه الخصوص، ولجمهور المدعوين المنتظرين على وجه العموم. ما يجعل علم فقه الواقع – بالإضافة إلى ركن علم المقاصد- ركنا أساسا في نجاح العملية الدعوية، مستأنسين بتحليل عناصر وأركان العملية الدعوية الاتصالية ورموزها المختلفة، ولمعطيات دورة التغذية المرتجعة[1]، بين النماذج الدعوية المدروسة، وذلك من خلال وضع الخطة المناسبة.

---

(١) التغذية المرتجعة: مصطلح إعلامي يُدرس ضمن نسق النظريات الإعلامية الشهيرة (الحقنة تحت الجلد، الغرس الثقافي، الاستخدامات والإشباعات، الأجندات وترتيب الأولويات..)، ويُدرس اليوم ضمن نظريات الإعلام التفاعلي الجديد، ثم جُيِّرَ واعتمد منهجيا ضمن نسق الدراسات الدعوية باعتبار منهج ونظرية الاتصال الدعوي، التي تعتبر العملية الدعوية مجرد عملية اتصال وتواصل مع الآخرين عبر أركانها الستة: (من؟ يقول ماذا؟ لمن؟ بأية وسيلة؟ وبأية تأثير؟ وبأية رد فعل واستجابة؟)، وانتظار ردة الفعل وهو التغذية المرتجعة، وباتت أكثر فاعلية مع وسائط الإعلام الجديد، أو باعتبار منهج ونظرية الاتصال الاجتماعي الرباعية الأركان (داعية، دعوة، مدعوين، وسيلة)، أو باعتبار منهج ونظرية التطارح الفكري الدعوي، حيث الدعوة (علم، فكر، هيئة منشأة مؤسسة، نظام).

لمزيد من التوسع انظر: عيساوي، أحمد محمود، منهجية البحث في عملية الاتصال الدعوي، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م؛ ومدخل إلى علوم الإعلام والاتصال، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م؛ ومدخل إلى علم الدعوة، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م؛ والدعوة الإسلامية في قرن التكنولوجيات العولمية، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م، مع ملاحظة أن البحث أُنجز بكامله من الكتب الورقية فقط.

- إشكالية الدراسة:

تنطلق إشكالية هذه الدراسة الاتصالية والشرعية من تساؤل مركزي مفاده: هل العمل والخطاب الدعوي القائم اليوم عملا وخطابا دينيا ناجحا وموفقا في غياب علمي المقاصد وفقه الواقع والتنزيل؟

فإن كانت الإجابة بـ: (نعم)، فلسنا بحاجة إلى أن نجري العقل والمنهج في البحث والتحليل عن قيمة ومكانة ودور وأهمية وأثر هذين العِلمين في نجاح العمل الدعوي والخطاب الديني.

وإن كانت الإجابة على الفرضية الكبرى بـ: (لا)، كانت التساؤلات الفرعية التالية:

١ – لماذا فشل هذا العمل والخطاب الدعوي إذن؟ ألهذا السبب أم لغيره؟

٢ – وهل يمكن أن يكون نجاحه لأسباب أخرى غيرها؟

٣ – وما أهمية ودور وقيمة علمي المقاصد وفقه الواقع والتنزيل في نجاح وسداد العملية والخطاب؟

٤ – وكيف يمكن لهذين العِلمين الارتقاء بهذه العملية وهذا الخطاب إلى وضعية السداد والتوفيق والنجاح؟

٥ – وما دور هذين العِلمين في نجاح أركان العملية الدعوية: (العمل الدعوي، الداعية، المدعوين، الوسيلة الدعوية) كقيمة مركزية في هذا الدين؟

وانطلاقا من هذه التساؤلات المركزية عن أهمية ودور هذين العِلمين نقدم الخطة التالية:

- خطة الدراسة:

١- الفصل الأول: (المدخل والإشكالية والتعريفات اللغوية والاصطلاحية: حاجة، الدعاة، الضرورية، علم المقاصد، علم فقه الواقع، نجاح، العمل الدعوي).

٢- الفصل الثاني: قيمة علم المقاصد وفقه الواقع وأثرهما في نجاح العمل الدعوي، ويتكون من المباحث الآتية:

- المبحث الأول: علم المقاصد وفقه الواقع قيمة مركزية دعوية في هذا الدين.

- المبحث الثاني: علم المقاصد وفقه الواقع قيمة مركزية دعوية لنجاح العمل الدعوي.

- المبحث الثالث: علم المقاصد وفقه الواقع قيمة مركزية دعوية لنجاح الداعية.

- المبحث الرابع: علم المقاصد وفقه الواقع قيمة مركزية دعوية مؤثرة في أصناف وفئات المدعوين: (حقيقيين، مُستقبلين، مرتقبين، متشككين، مناوئين..).

٣- الفصل الثالث التطبيقي: أنموذج تطبيقي من حوار النملة ونبي الله سليمان، عليه السلام.

وفيه عرض لنموذج الحوار القرآني الذي دار بين نبي الله سليمان، عليه السلام، والنملة، نظرا لما يجسده من أبعاد نجاح العملية الدعوية المصونة بضابط فقه الواقع والمقصد والتنزيل على المحل.

- الخاتمة: النتائج والتوصيات:

وفي الخاتمة نقرر ما وصلنا إليه من حقائق وما توصلنا إليه من نتائج مهمة، ونترسم ما نراه جديرا ونافعا من توصيات.

- مناهج البحث ونظرياته والدراسات السابقة:

مستعينا - بعون الله تعالى وتوفيقه- ومستخدما كافة المناهج العلمية البحثية المتاحة لتحليل الموضوع المدروس، وسأبيّن في الفصل المدخلي الأول، التعريفات الأساسية للبحث، فضلا عن إبراز قيمة الإشكالية عبر جملة من التساؤلات المركزية، وسأعالج في الفصل الثاني والذي هو صلب الموضوع أثر ودور وأهمية ممارسة قيمة علم المقاصد وفقه الواقع في نجاح الدعوة والداعية وجذب المدعوين، وأهمية معرفة وفقه خبايا الواقع وانعكاساتها على العمل الدعوي ونجاحه، ملتزما التزاما صارما بتقنيات البحث العلمي الأكاديمي في: الإحالة والتهميش والتوثيق والنقل والاقتباس والتضمين وتخريج الآيات والأحاديث النبوية وغيرها من النصوص والأقوال والآثار والأخبار والأحداث التاريخية، وذلك بإحالتها إلى مصادرها الأساس والرئيسة، مكتفيا بذكر بيانات الكتاب كاملة لأول مرة، ثم أقتصر على ذكر المصدر وصاحبه فقط في المرات

القادمة، ولم أعمد إلى ترجمة الصحابة الأئمة الأعلام حتى لا أثقل الهوامش بتلك الترجمة، ونظرا لما توفره شبكات البحث من تراجم عنهم.

أما فيما له علاقة بالدراسات السابقة أو المشابهة، فلم أرد أن أخصص لها حيزا في المقدمة، كونها سترد في متن أو هوامش الدراسة، ولاسيما أن المكتبة الإسلامية عامرة وزاخرة بشتى أصناف الدراسات الدعوية.

وفيما له علاقة بنظرية البحث المعتمدة، والتعريف التشخيصي والإجرائي لمفهوم العملية الدعوية، فقد استندت إلى نظرية الدراسات الاتصالية الحديثة والمعاصرة، التي تعتبر العملية الدعوية عملية اتصال متميزة ومعقدة بالآخرين على اختلاف فئاتهم وأصنافهم ومستوياتهم وأنواعهم: (الداعية، الدعوة، المدعوين، التقنيات والأساليب، الوسائل، الأثر، ردة الفعل والاستجابة المطلوبة).

- الصعوبات والعراقيل:

تكاد تكون الصعوبات والعراقيل المانعة لإنجاز هذا البحث معدومة، نظرا لوقوع البحث في مجال الإحاطة والسيطرة من جهة، وفي مجال استكمال دراسة بقية حلقات العملية الدعوية وفق منهج ونظرية الدراسات الاتصالية المعاصرة، عدا صعوبة واحدة تمثلت في كثرة الأمثلة والشواهد والأدلة الشرعية في الباب الواحد، وصعوبة الانتقاء والتوفيق بينها، وترك بعضها لحساب الاختصار.

- الأمنية والرجاء:

سائلين الله العلي القدير سؤال عبد مُخْبِتٍ ضارعٍ أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يتغمد بالرحمات كل من كان سببا في تأسيس وإنشاء واستمرار وبقاء هذه السلسة الغراء «كتاب الأمة» من الأحياء والمتغَمَدين برحمة الله، وراجين من الله العلي القدير أن ينتفع به الدعاة المخلصون الغيورين على الإسلام والمسلمين، في زمن تكالبت فيه الخطابات الضالة والوثنية كلها على الإسلام ودعاته الصادقين المخلصين.

إنه سميع قريب مجيب الدعاء، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

الفصل الأول

المدخل والإشكالية المركزية والتعريفات الاصطلاحية

واجه الدين الإسلامي وما يزال يواجه هو ودعاته ومختلف هيئآته ومؤسساته ومنظماته مع مطلع الألفية الثالثة، ولاسيما بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، موجات وسيولا من التحديات المتشابكة والمعقدة والمختلفة على كافة الأصعدة والميادين والجبهات: الداخلية والمحلية والإقليمية والعالمية والخارجية، الذاتية والمعرفية والمنهجية والموضوعية، البنيوية والشكلية والتواصلية، التي أعاقته وما زالت تعوقه عن تأدية مهام رسالته الإسلامية الخالدة للإنسانية جمعاء على أكمل وجه، وقللتْ من حضوره وتأثيره في صياغة وصناعة الخطاب الحضاري والمدني والديني العالمي المعاصر.

تأتي تلك التحديات بالرغم من متانة وتماسك وانسجام مضمونه المرجعي، وقداسة ونُبل تعاليمه، وواقعية ومرونة طروحاته، ووسطية وإنسانية

شريعته وتنظيماته، وبالرغم من جدوى وفاعلية سننه ونواميسه وقوانينه، وصلوحية نظامه ومنهجه ورؤيته وتصوره وقيمه، وإيجابية أسسه وقواعده التنموية والحياتية والتجديدية والتقدمية والنهضوية.

وعلى الرغم من ذلك، إلاّ أنه ما يزال يُتبع العثرة وراء العثرة في زمن الوسيلة الذلول (وسائل الإعلام والاتصال التقليدية والحديثة: مكتوب، سمعي، سمعي بصري، ووسائط اتصال الموجة الإلكترونية المعاصرة)، ما يجعل العقل المسلم حائرا ومضطربا حيال الرؤية الاتصالية القيمية عن تعثر الخطاب الإسلامي في زمن وعصر الوسيلة، ورؤية نجاح الخطاب في زمن بساطة وتواضع الوسيلة في القرون الحضارية الإسلامية الخالدة.

وهو الأمر ذاته الذي تواجهه الدعوة الإسلامية وما زال يطرح بإلحاح وقوة على العقل المسلم المعاصر اليوم مناقشة موضوع أسباب تعثر وضعف الخطاب الديني في زمن توفر وسرعة امتلاك واستعمال الوسيلة، ونجاحه وتفوقه في عصر اتسم بضعف وبساطة الوسيلة في قرون الدعوة وانتشار الإسلام الذهبي، منذ القرن الهجري الأول إلى القرن الثاني عشر الهجري السابع الميلادي إلى القرن الثامن عشر الميلادي.

ولعل أسباب التعثر كثيرة ومتعددة ومتنوعة وعميقة، منها ما يتعلق بالجهة المنتجة والمعدة والمرسلة للخطاب، فردا كانت أم جماعة أم هيئة، أم

مؤسسة أو منشأة أو دولة، ومنها ما يتعلق بالجهة المستقبلة للخطاب وأصنافها وأنواعها ومستوياتها وبيئاتها ومحيطها، أو بالوسيلة الاتصالية والإعلامية والدعوية نفسها، أو بالأسلوب والطريقة والكيفية، أو بالظروف والأوضاع الزمكانية والكيانية والإمكانية للمستقبلين الحقيقيين والمتوقعين، أو بواقع وبوصلة واهتمامات وانشغالات وتطلعات الجهات المستقبلة للخطاب، ومدى حاجتها ورغبتها أو عزوفها عنه.

وهو ما سنعالجه ونبحثه من خلال الشعور بالمشكلة الحقيقية للبحث أولاً، وهو صلب وهيكل إشكاليته البحثية، المتمثلة في جزئية من جزئيات تعثر الخطاب الديني والدعوي في زمن الوسيلة.

وقد تكمن الإشكالية في ركن القائم بإعداد وإنتاج وصياغة الرسالة الدعوية، الذي يفتقر ويعوز القائم بها: فقه عميق، وعلم غزير، في علمي المقاصد وفقه الواقع وإحداثيات تنزيل الخطاب الديني على محله الدعوي المستقبلي، أو في باقي الأركان (رسالة، وسيلة، جمهور مستقبل، أثر، ردة فعل).

غير أن ما يعنينا هو معالجة الجزئية، التي نرجحها – حاليا– لوجاهتها في ترتيب أسبقيات وأولويات النجاح والتسديد للخطاب الدعوي الموفق.

وقبل كل هذا وذاك فإننا سنعالج عبر مباحث الفصل الأول الثلاثة، حقيقة الإشكالية وتساؤلاتنا المركزية البانية والمحفزة على الطرح والمعالجة والاستنتاج، وتقصي المعاني والمفاهيم والحدود والتعريفات الحقيقية لمعالم ومكونات البحث، مع أنمذجة تاريخية، وتمثيل مرجعي تطبيقي قياسي للتعريفات والطروحات النظرية المؤسسة، وذلك من خلال المباحث الثلاثة الآتية:

١- المبحث الأول: المدخل والإشكال والفروض والتساؤلات المركزية.

٢ – المبحث الثاني: المفاهيم والحدود والتعريفات اللغوية والاصطلاحية المِعْلَميَّةِ.

٣- المبحث الثالث: معالم أنموذجية واقعية ومقاصدية.

المبحث الأول

المدخل والإشكال والفروض والتساؤلات المركزية

منذ أمد دعوي غير بعيد من حياتي العلمية والدعوية القصيرة جدا، وعقبَ قراءةٍ أو معرفة أو سماع أو مشاهدة أو حضور مجلس علمي أو فكري أو دعوي أو أدبي محسوب على الخطاب الديني الإسلامي المعاصر كان -وما يزال- يتبادر إلى ذهني مجموعة من الأسئلة والتساؤلات الدعوية المركزية، يتقدمها — دون استئذان – هذا التساؤل المركزي، وفحواه:

ما علاقة هذا الخطاب الدعوي، الذي قرأته أو سمعته أو شاهدته بعلم فقه واقع الناس المخاطبين وبعلم مقاصد الشريعة، بَلْهَ بالإسلام نفسه؟

وتتفرع عن هذا التساؤل مجموعة من التساؤلات المركزية الأخرى، وهي:

هل هذا الناطق باسم الإسلام مدركٌ وواعٍ تمام الوعي والإدراك بتفصيلات ومنافع وآثار هذين العلمين الجليلين؟

وهل هذا الخطاب يقوم ويتأسس على حِذْقٍ وتَمَهُّرٍ بأساسيات هذين العلمين؟

ولماذا يُصِرُّ الدعاة على اعتبار الخطاب الدعوي مجرد سرد عام وجافٍّ للوقائع والقصص والحوادث والمواقف وعرض سطحي وانفعالي وحماسي ساخن للأحداث وللأحكام الشرعية الإسلامية؟

ولماذا يُصر الدعاة على تقديم الإسلام بهذه الطريقة الحماسية والمتشنجة والموتورة؟

ولماذا يندفعون إلى حشر الإسلام في قفص الاتهام، ثم ينبرون للدفاع عنه كمُتهمٍ جانٍ، وكأنه وأهلَه قد ارتكبوا ذنبا عظيما أو انحرفوا بالناس وبالحضارة وبالتاريخ عن سيرها الآفاقي السوي؟

ولماذا يقدمون الإسلام لجمهور المدعوين على اختلاف أصنافهم على أنه فروسية وشجاعة وقتال وحروب وبطولات واستعباد واضطهاد وقمع وعنف وتهميش وإقصاء، ولا يقدمونه مشروعا حياتيا نهضويا شاملا ومتكاملا ورائدا ومتميزا؟ لماذا لا يقدمونه رؤية استراتيجية آفاقية شاملة ومنقذة للبشرية المفلسة الضالة المتنكبة عن معرفة ربها؟ لماذا لا يقدمونه فتحا ونورا وعلما ورشادا في البر والبحر والجو، وفي الحاضر والمستقبل؟

وبمقابل هذه التساؤلات الدعوية المشروعة الكبرى كانت تقفز أمامي جملة من الإشكالات الأخرى، وهي:

ماذا يخسر أو يربح الدعاة دعويا لو حذقوا وتَمَهَّروا علمي فقه الواقع ومقاصد الشريعة؟ ولماذا الاستهانة بالخطاب الدعوي المعقد والمركب

والمتشابك العلوم والمعارف والمناهج والتقنيات والأبعاد الزمكانية والكيانية والإمكانية؟

وهل سيُطور ويُرَقّي معرفة علم فقه الواقع والمقاصد أداء ونجاح مهمة الداعية؟ وهل سيستفيد العمل الدعوي من تمكن الدعاة من علمي فقه الواقع والمقاصد، أم أن الأمر لا يعدو أن يكون سوى زيادة في البحث وتراكما في حجم وتعداد وزن الثقافة الإسلامية لا غير؟

لاسيما أن «.. كل عاقل يعلم أن مقصود الخطاب ليس هو التفقه في العبارة، إنما التفقه في المعبَّرِ عنه والمراد منه..» [1]، ولأن «.. المقصد العام للشارع من تشريعه الأحكام هو تحقيق مصالح الناس بكفالة ضرورياتهم وتوفير حاجياتهم وتحسينياتهم، فكل حكم شرعي ما قصد به إلا واحد من هذه الثلاثة، التي تتكون منها مصالح الناس، وجعلها قاعدة من القواعد الأصولية التشريعية، لتحقيق مصالح الناس في هذه الحياة بجلب النفع لهم ودفع الضرر عنهم ما أمكن..»[2]، ورفع الحرج عنهم، وتيسير أحكام الدين لهم، حتى يتمكنوا من تطبيقه والتعود عليه،

---

(١) انظر: الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي (ت ٧٩٠هـ)، الموافقات في أصول الشريعة الإسلامية، شرح وتخريج الشيخ عبد الله دراز، توزيع عباس أحمد الباز، مكة، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ/١٩٧٤م، ج٣، ص٤٠٩.

(٢) خلاف، عبد الوهاب، علم أصول الفقه، دار القلم، الكويت، الطبعة العشرين، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص ١٩٧- ١٩٨، نقلا عن: بركات أحمد بني ملحم، مقاصد الشريعة الإسلامية في الشهادات، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م، ص ٢٩ -٣٠.

والاستئناس بارتفاقه والانصياع لأحكامه، والسير وفق تعاليمه الحنيفية السمحة، وبناء مدنية راقية ومهتدية، ينجحون من خلالها في وظيفتي الاستخلاف والاستعمار المنوطتين بهم رساليا وحضاريا، وينالون جرّاءها السعادتين الأخروية برضى ربهم عليهم وبسيادتهم الإيمانية الاهتدائية في الأرض.

وقد شكلت كل هذه التساؤلات بين علمي فقه الواقع والمقاصد مع علم الدعوة معبر فهم وتدبر، ومسار بحث ونظر وتحليل وتقييم وتقويم للرقي بالخطاب الدعوي المتعثر اليوم على الصعيدين المحلي والعالمي والتي ستسوقنا حتما لتناول الكثير من الأدلة والمواطن والوقائع القرآنية الحساسة، التي جسدتْ بوضوح أبعاد وآفاق وتجليات أركان العملية الفقهية الواقعية والمقاصدية والدعوية أيضا، فضلا عن تنويرات وإرشادات السنة النبوية المطهرة.

ولعل فيما شكلته تلك المواطن والأدلة أيضا مساقات دلالية لأهمية ما ذهبنا إليه، ولأجل ذلك سقنا -في الفصل التطبيقي الثالث- نتفاً من أحداث ومجريات الحوار البليغ والقصير، الذي تم بين النملة ونبي الله سليمان، عليه السلام، كمحور تطبيق واستنارة مقاصدية وواقعية لما في هذين العلمين من فوائد جليلة للدعوة إلى الإسلام وحسن التعريف به، اخْتَزَلَتْهُ تلك النملة في حوارها المعبر والمقتضب والمفيد والواقعي والمقاصدي الهادف، الذي ساقته سورة النمل في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ

صَٰلِحًا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (النمل:١٨-١٩) والذي شمل أهم مقاصد وأهداف الحياة السوية، من حفظ لـ (الحياة، الدين، العقل، النفس، النسل، الوحدة، المال، العدل، الحرية، النظام، التيسير ورفع الحرج)، وهذه المقاصد الدينية هي عين الواقع والحياة الكريمة والسوية بتمامها وكمالها، ولو زدنا في التدبر والتصفح لعَلِمْنا ولوجدنا النظائر والأشباه المبثوثة في الآي الحكيم والسنة النبوية المطهرة الدالة على قيمة ما سنذهب إليه أيضا.

وما يجلب الاهتمام هنا، ويثري الانتباه والتمعن والتدقيق والتفكير، ويدعو الباحث الحصيف – بقوة – للتوسم والتأمل والتحليل والنظر هو: قدرة وشجاعة وبلاغة وأدب ومنطق النملة العجيبة – بالرغم من ضآلة حجمها- في إدارة حوارها الشهودي المقتضب مع شخصية غير عادية.. فالشخصية، التي حاورتها هي شخصية نبي مرسل ومَلكٍ عظيم أوتي ملكا لم يُؤْتَهُ أحد من قبله ولا من بعده، واستطاعت النملة بكل اقتدار وشجاعة تجسيدَ وتحقيق مصالح قومها، وجلب المصلحة والمنفعة لهم، ودفع المضرة والمفسدة عنهم.

فكانت بذلك الحوار الصادق والجريء، وبذلك الخطاب العقلاني الشجاع والمسيَّجِ بشتى أفانين العرض الأخلاقي والتربوي والأدبي والبياني والجدلي والإقناعي البليغ خيراً من الآلاف المؤلفة من الخطباء والمتحدثين باسم الإسلام في هذا الزمان المتعثر، واستحقت أن تكون ذات حضور مَعْلَمِيٍّ وبارز في الخطاب القرآني، ومَضْرِبَ مثَلٍ بليغ يقتدي به الدعاة والمرشدون والوعاظ من

المتحدثين باسم الإسلام[1] على مَرِّ العصور والدهور، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. هذا إذا ضممنا إليه مواقف وشجاعة الأنبياء كيوسف وموسى وهارون، عليهم الصلاة والسلام، والصالحين كرجل فرعون والذي جاء من أقصى المدينة راكضا يسعى للخير، وأصحاب الكهف والرقيم.

وحتى نصل عين المقاربات المتبصرة نعكف – بعد قليل– على تبيين المفاهيم والحدود والتعريفات اللغوية والاصطلاحية في المبحث الثاني.

---

(١) المتحدثون باسم الإسلام اليوم كثيرون جدا، وذلك ما نعرفه ونشاهده ونقرأ عنه ونتواصل به، عبر مختلف وسائل الاتصال والإعلام التقليدي كالمسجد والمركز الثقافي والموعظة والفتوى والمحاضرة والدرس والصحيفة والكتاب والمطبوعة والمطوية والجداريات الإشهارية المطبوعة والضوئية، وعبر وسائط الإعلام والاتصال الحديثة، كالمذياع والتلفاز وسائر الأجهزة الأخرى (الدي في دي والفيديو والفاكس والهاتف..) والحداثية (الشبكة العنكبوتية: مواقع التواصل الاجتماعي، البريد الإلكتروني..) والقنوات الفضائية التي فاقت الخمسمائة قناة دينية إسلامية متخصصة عبر العالم، والغريب في أمر هؤلاء الدعاة أن كل واحد منهم يدعي نسبة خطابه هي الأقرب والأصوب للحقيقية ولمنهج القرآن الكريم وسنة الرسول الكريم، عليه الصلاة والسلام، كما يدعي كل واحد منهم أنه هو وحده المدرك والفاقِهِ والفاهم الأوحد للإسلام ولتعاليمه السمحة، وأن ما عداه من الدعاة أخطأ وزل وانحرف في فهم الإسلام، والمتتبع لهم يعرف منهم وينكر، ولكم كان رسول الله ﷺ أخوف ما يخافه على الإسلام والمسلمين ثلاثا، فعن معاذ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ ثَلَاثًا، وَهُنَّ كَائِنَاتٌ: زَلَّةُ عَالِمٍ، وَجِدَالُ مُنَافِقٍ بِالْقُرْآنِ، وَدُنْيَا تُفْتَحُ عَلَيْكُمْ**»، الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، دون تاريخ، ج١، ص١٧٨.. وقد ذُكر عن عمر ﷺ أنه قال لزِيَادِ بْنِ حُدَيْرٍ ﷺ: «هَلْ تَدْرِي مَا يَهْدِمُ الْإِسْلَام؟ زَلَّةُ عَالِمٍ، وَجِدَالُ مُنَافِقٍ بِالْقُرْآنِ، وَأَئِمَّةٌ مُضِلُّونَ»، أخرجه الدارمي عثمان بن سعيد السجستاني، سنن الدارمي، تخريج وتحقيق عماد الطيار وعز الدين حنبلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩١م. انظر: عيساوي، أحمد محمود، الإعلام الجديد وتحديات الموجة الإلكترونية المعاصرة، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م.

المبحث الثاني

المفاهيم والحدود

والتعريفات اللغوية والاصطلاحية

قبل الخوض في تفاصيل بحثنا نود التعريف بمفاهيمه ومصطلحاته ذات العلاقة الأساسية والوطيدة به؛ لتتضح لنا التصورات الصحيحة السليمة لما نريد معالجته [1]، وهي المعاني والألفاظ والدلالات الآتية:

١ – ١– حاجة:

تشير المادة اللغوية لجذر كلمة [حَ، وَ، جَ] وجمعها [حاجات، حوائج] إلى العديد من المعاني، ولكن ما يهمنا في بحثنا الدلالات الآتية [2]:

---

(١) يذكر الأستاذ الدكتور الداعية الشيخ محمد حسن هيتو في مقدمة كتابه القيم: «الوجيز في أصول التشريع الإسلامي» خلاصة محكمة عن أهمية ضبط الحدود والمفاهيم وبناء التصورات الصحيحة بناءً سليما في ذهن صاحبها، فيقول: «قبل الخوض في الكلام على مقدمات الأصول ومباحثه، يجب علينا أن نقف على حدّه وتعريفه؛ لأنه لا يمكن للإنسان أن يخوض في أي علم من العلوم إلاّ بعد أن يتصوره تصورا صحيحا سليما، والطريق إلى التصور الصحيح هو التعريف السليم، الذي يوضح المراد من المعرف ويشرحه..» انظر: هيتو، محمد حسن، الوجيز في التشريع الإسلامي، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص٢٥.

(٢) انظر: الفيروز آبادي، أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب، معجم القاموس المحيط، دار مكتبة الحياة، بيروت، دون طبعة وتاريخ، ج١، ص١٨٢، بتصرف.

١ – حاجَةٌ: أي كانَ في حاجَةٍ ماسَّةٍ إلى مُساعَدَتِهِ، فالحاجة الضرورة وما لا يُستغنى عنها.

٢ – حاجَةٌ: الافْتِقارُ إلى ذلك الشيء أو الأمر، والاحتياج إليه.

٣ – حاجَةٌ: العَوْز إلى ذلك الشيء أو الأمر.

٤ – الاحتياج: هو العوز والافتقار والضرورة إلى ذلك الشيء أو الأمر المادي أو المعنوي.

٥ – جاء في قوله تعالى: ﴿..وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ..﴾ (غافر: ٨٠)، أي: لتحققوا حاجاتً ومنافعَ كامنة في نفوسكم.. وجاء في الأثر: (صاحب الحاجة أرعنُ)، أي طالب الأمر يفقد اتزانه وسَمْتَهُ ورزانته طلبا لتحقيق حاجته.

ومن خلال هذه المقاربة اللغوية يمكننا تقرير أن معنى الحاجة، الذي نذهب إليه هو: الشيء الضروري لحياة البشر، مثل الطعام والمأوى والهواء وسائر متطلبات الحياة المادية والروحية والمعنوية.

فهو: امتلاك المقصود «ماديا أو معنويا وروحيا»، والتحكم فيه، والاستواء عليه، وعدم الافتقار والعوز إليه.. ومقصودنا في بحثنا: علمي المقاصد وفقه الدعوة.

وعليه يمكننا تقسيم أركان عملية الاحتياج إلى: محتاج وحاجة وطريقة ومنهج لتحقيق الحاجة وأثر ونفع وفائدة تلك الحاجة، وفق الترتيب التالي:

١ – الداعية أو القائم بالخطاب الدعوي، فردا أم هيئة، هو المحتاج.. وقد يكون متمكنا فلا يحتاج إلاّ للمزيد فوق الحد الموجود عنده.

٢ – الحاجة، وهنا ،كما سنبين لاحقا، مضامين ومناهج علمي المقاصد وفقه الواقع ولواحقه من علم فقه التنزيل.

٣ – منهج الأخذ والتمكن من الحاجة المطلوبة.

٤ – فوائد ومنافع وأثر التمكن من تلك الحاجة (علمي المقاصد وفقه الواقع ولواحقه من علم فقه التنزيل).

٥– ردة الفعل والاستجابة المطلوبة دعويا من التمكن من تلك الحاجة (علم المقاصد وفقه الواقع..).

فالحاجة المعنية هنا هي: الحد المطلوب معرفيا ونظريا وتطبيقيا وعمليا وواقعيا وتواصليا من الغرض المنشود والكافي لنجاح المقصود، وهو: (العمل الدعوي).

١– ٢– الدعاة:

جمع داعية، وهو مشتق من الجذر اللغوي لكلمة [دعا، يدعو، دعاء، دعوة، داعي] والتي لها معانٍ كثيرة ومتعددة، من الجدير تتبعها للاستجلاء والتحقق.

١– ٢– ١– الدعوة لغة :

من خلال تتبع المادة اللغوية لكلمة [دعا]، تبين لنا أنها تفيد المعاني التالية[1]:

---

(١) انظر: الزبيدي، محمد مرتضى (ت ١٢٠٥هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، دار مكتبة الحياة، بيروت، دون طبعة، دون تاريخ، ج١٠، ص١٣٦، مادة (دعا)؛ أو لسان العرب لابن منظور، أو قاموس المحيط للفيروز آبادي؛ والرازي محمد بن أبي بكر ابن عبد القادر (ت ٦٦٠هـ)، مختار الصحاح، المكتبة الأموية، دمشق، دون طبعة، ١٣٩٠هـ/١٩٧١م، ص٢٠٥ – ٢٠٦، بتصرف، مادة (دعا)، وغيرهم.

١ – دعا: نادى، أذّن، صوّت، صرخ، ابتهل، استنفر، استصرخ، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (فاطر:٦)، وكقوله ﷺ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا**»[(١)].

ومنها قول القائل:

دعانا والأَسِنَّةُ مُشْرَعاتٌ *** فكنَّا عندَ دَعوتِهِ الجَوَابا[(٢)].

٢ – دعاء: المناداة، الأذان، الابتهال.. و[الدعاء]: الرغبة إلى الله تعالى فيما عنده من الخير، والابتهال إليه بالسؤال، ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ (الأعراف:٥٥).

٣ – دعوى: ألفها للتأنيث، ولذا تقلب إلى تاء مربوطة، فتصبح [دعوة].

---

(١) أخرجه مسلم، أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦-٢٦١هـ) في صحيحه، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م، حديث رقم (٢٦٧٤).

(٢) هذا البيت من قصيدة لأبي فراس الحمداني يمدح فيها سيف الدولة الحمداني مطلعها:

ألَمْ تَرَنا أعزَّ النَّاسِ جاراً وأمرعَهُم وأمنعَهُمْ جَنَابا

انظر الديوان، رواية ابن خالويه (ت ٣٧٠هـ)، بيروت، ١٨٧٣م، ورواية مشروحة بقلم نخلة قلفاط (ت١٩١٠م)، بيروت، ١٩٠٠م، نقلا عن: فؤاد أفرام البستاني، الروائع، عدد ١٦، المطبعة الشرقية، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٩٨١م.

ومن هذه المقاربات اللغوية للفظ [دعا] ومشتقاته نتبين أنه قد ورد بمعانٍ مختلفةٍ تشترك كلها في معنى واحد رئيس هو: عملية إحداث الاحتكاك والاتصال بالناس، وإعلامهم بواسطة القول أو الفعل، أو الاثنين معا، ومحاولة تحسيسهم، وتنبيههم بالرسالة المراد تبليغها وإيصالها لهم[1].

محاولة لصياغة تعريف:

هي محصلة النشاط الاتصالي الشمولي، الذي يمارسه الدعاة الإسلاميون في مرحلتي التغيير والبناء على الصعيدين المحلي والعالمي، بهدف التعريف برسالة الإسلام، التي أنزلها المولى تبارك وتعالى على نبيه محمد ﷺ، وذلك عبر مختلف الوسائل والتقنيات الحضارية الممكنة، تأسيسا على الأطر المرجعية المقدسة منطلقا وممارسة ومنهجا وأسلوبا وهدفا[2].

وعليه، فالدعوة ليست فضاءً مباحا ومفتوحا لأيٍّ كان من الناس، بل هي مجال محدد وضيق وخاص بمن تفقه في الدين.. والفقه في الدين علم بأصوله وفروعه في العقائد والعبادات والمعاملات والآداب والأخلاق، وعلم بالثابت (الكتاب، السنة) والمتغير (بأصول الفقه: الاجتهاد، القياس، الاستصلاح، المصالح المرسلة، العرف، شرع من قبلنا..)، وعلم بالمسائل

(١) انظر: عيساوي، أحمد محمود، مدخل إلى علم الدعوة، مرجع سابق، ص ٢٧..٣١، بتصرف.

(٢) انظر: عيساوي، أحمد محمود، المرجع السابق، ص٣٢.

وأدلتها التفصيلية، وعلم بسيرة وسنة محمد ﷺ، وهي علم بعدد من العلوم كالأصول وعلوم القرآن والتفسير والفقه وأصوله، والسيرة والتاريخ الإسلامي، وعلم الحديث ومصطلحه، وعلم المقاصد وفقه الواقع واللغة وفروعها، وغيرها من العلوم الحديثة، بحيث يستوي على الحدود المطلوبة معرفيا، كعلم التاريخ والنفس والاجتماع والاقتصاد والصحة والإعلام والاتصال..

١- ٢- ٢- الداعية اصطلاحا:

يدل لفظ الداعي على المعاني التالية: منادي، مؤذن، مستصرخ، مستنفر، مبتهل.. وداعية: التاء فيه زائدة، تعود على طبيعة ونوعية دعوته، وهو المنادي والمؤذن والصارخ في الناس، وقد سمى المولى تبارك وتعالى رسوله الكريم محمد ﷺ بـ[داعيا] في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ (الأحزاب:٤٥-٤٦).

و[الداعية] لفظ له معنيان أحدهما يدل على الخير، والثاني يدل على نقيضه، ومن ذلك تتميز دعوة الداعي بنوعية ما يدعو إليه، ومن هنا فقد وصف الله رسوله الكريم بداعي الخير في قوله: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ (الأحزاب:٤٦)، وعلى لسان الجن المؤمنين لما سمعوا داعي الله: ﴿ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ (الأحقاف:٣١).

أما ما يدل على نقيضه فقول الله تعالى على لسان مؤمن آل فرعون: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ (غافر:٤١).

وعليه، سنحاول صياغة تعريف للداعية المسلم تأسيسا على دعوة الأنبياء والمرسلين، ثم الذين يلونهم، فإن الداعية المسلم اصطلاحا، هو: الإنسان المؤهل روحيا، ووجدانيا، وعقليا، وجسديا للاضطلاع بمهمة التبليغ والدعوة لرسالة الله تعالى إلى الأفراد والمجتمعات والأمم، بقصد حملهم طواعية على اتباع تعاليمه، والعمل على ما جاءت به من: عقائد، وتصورات، وعبادات، ومعاملات، وأخلاق، وآداب، وقيم[1].

ومن هنا نحب أن نستوثق من خصائص الداعية، الذي نريده فاقها لعلمي المقاصد وفقه الواقع.. فهو الذي تميز بالخصائص والمواصفات الآتية:

١ – بلوغ درجات الكمال الروحي والوجداني، من تقوى وإخلاص وإيمان..

٢ – بلوغ درجة الضبط والكمال العقلي والتصوري، فهما وتدبرا ووعيا وإحاطة بالكليات والفروعيات، كعلمي المقاصد وفقه الواقع، ومن عطاءات الفكر الإنساني في مختلف نواحي العلم الديني والدنيوي.

٣ – بلوغ درجة القدوة السلوكية والأخلاقية العملية المتميزة؛ لأن «الداعي هو الذي يصلح حياته لصالح هذه الدعوة قبل كل شيء، فإنه ما إن يشرع في دعوته إلاّ وترتفع إليه العيون الناقدة والأنوار الكاشفة من كل صوب، فإذا كان في حياته أتفه شيء يتنافى مع دعوته وعقيدته،

(١) انظر: عيساوي، أحمد محمود، مدخل إلى علم الدعوة، ص ٥٦ – ٥٧.

فإن هؤلاء المحاسبين والمتطوعين يثيرون عليه الضجة، ولا يزالون به حتى يجبروه على الإقلاع عنها..»[1].

٤ – القدرة والاستطاعة الجسدية.

٥ – السيطرة على وسائل الاتصال والإعلام، التي تمكنه من الاتصال بالمدعوين.

وهكذا فإن الدعوة إلى الله عمل عظيم، لا يمكن أن يضطلع به كل من هب ودب من عموم المسلمين – على الرغم من كون كل مسلم داعية للإسلام بما عنده من علم وفقه به – لأنه من وظائف ومهام أنبياء الله وخلفائهم من العلماء الوارثين لميراث النبوة.

وعليه، فإن مدلول مصطلح الداعية ينصب على القائم بالدعوة إلى الله، والمتمكن منها: علمياً ومعرفياً ووجدانياً وإيمانياً وأخلاقياً وتربوياً وسلوكياً وعملياً.

١ – ٣– الضرورية:

تشير المادة اللغوية لجذر كلمة (ضَ، رَ، رَ) إلى معانٍ كثيرة، ما يهمنا منها التالية: [2]

١– الضرر: الضيق والشدة وسوء الحال والنقصان يدخل في الشيء.

٢– والضرر والضراء الشدة والنقص في الأموال والأنفس.

---

(١) المودودي، أبو الأعلى، تذكرة دعاة الإسلام، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ٣٦.

(٢) انظر: الفيروز آبادي، معجم قاموس المحيط، ج٢، ص٧٥، بتصرف.

٣- الضرورة الحاجة والفاقة:

ومن خلال هذه المقاربة اللغوية يمكننا معرفة الضرورة بأنها هي: الحاجة الماسة والأساسية، التي من دونها لا يستوي الأمر أو الشيء.. فهي ما لا يُستغنى عنه.

١- ٤- علم المقاصد:

١- ٤- ١- علم:

تشير المادة اللغوية لجذر كلمة (عَ، لِ، مَ) إلى معانٍ كثيرة، ما يعنينا منها التالي[١]:

١- عَلِمَ: عرف وأتقن وحوى.

٢- إدراك الشيء بحقيقته.

٣- اليقين والمعرفة.

٤- العلم: (نور يقذفه الله في قلب من يحب، فينتج به ما تسعد به الإنسانية)[٢].

ويطلق مصطلح (العلم) على: «مجموعة من المسائل المتنوعة، والأصول الكلية المتكون منها الهيكل العام لكل مادة، أو فن؛ كعلم الكونيات وعلم الآثار...»[٣].

---

(١) انظر: الفيروز آبادي، معجم قاموس المحيط، ج ٤، ص ١٥٣، بتصرف.

(٢) انظر: الجيلاني بن الحاج يحي وآخرون، القاموس الجديد للطلاب: معجم عربي مدرسي ألف بائي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطبعة السابعة، ١٩٩١م، ص٦٩٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٩٦.

فالعلم هو: الإدراك الجازم المطابق للواقع عن دليل، وهو الظن القوي[1].. وهو: جنس عام لمجموعة المسائل والقضايا والحقائق والمعارف والتجارب والخبرات والأصول الكلية، التي يتكون منها الهيكل العام لمجال علمي من العلوم، له مصطلحاته ومناهجه الخاصة به.

١-٤- ٢- المقاصد:

تدل المادة اللغوية لفعل (قَصَدَ) على المعاني الآتية: الاعتزام، التوجه، النهود، النهوض نحو الشيء على اعتدال كان أو على جور، فالاعتزام والتوجه شامل لهما[2].

وعلم المقاصد في الاصطلاح، حسب تعريف عبد الكريم حامدي له، هو: «الغاية والهدف من تصرفات الشارع والمكلفين»[3].

---

(١) انظر: هيتو محمد حسن، الوجيز في التشريع الإسلامي، ص ٢٦، بتصرف.

(٢) ابن منظور، جمال الدين (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، دون طبعة وتاريخ، ج ٥، ص ٣٦٤٣، مادة [قصد]؛ وحامدي عبد الكريم، المدخل إلى مقاصد القرآن، مكتبة الرشد، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص١٨.
لم أجده عند الجرجاني، فلم يذكره، مع العلم أنه كان متأخرا عن الشاطبي المتوفي سنة ٧٩٠هـ، انظر: الجرجاني علي بن محمد الحنفي، التعريفات، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م.

(٣) انظر: حامدي عبد الكريم، المدخل إلى مقاصد القرآن، ص٢١، وقد فصّل الباحث في معاني هذا العلم وتاريخه، ص٢٠ .. ٢٣.

وعند علال الفاسي، فإن: «المراد بمقاصد الشريعة الغاية منها، والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها» [1]، فهي حكمها وأسرارها.

و«أهداف الشريعة مقاصدها، التي شُرعت الأحكام لتحقيقها» [2].

والمقاصد عند ابن عاشور: «المعاني والحكم والأسرار»[3].

وهي عند الشاطبي حكمة ومقصدا؛ لأن «الأعمال الشرعية ليست مقصودة لأنفسها، وإنما قصد بها أمور أخرى، هي معانيها، وهي المصالح التي شرعت لأجلها»[4].

---

(١) انظر: الفاسي، علال، مقاصد الشريعة ومكارمها، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الرابعة، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص ٧، نقلا عن: حامدي عبد الكريم، المرجع السابق، ص ٤٢ وعلال الفاسي أيضا، مقاصد الشريعة ومكارمها، طبعة مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء، ص٣.

(٢) انظر: العالم، يوسف حامد، المقاصد العامة للشريعة الإسلامية، دار الأمان، الرباط، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص٩٧، نقلا عن: حامدي عبد الكريم، المدخل إلى مقاصد القرآن، ص٢١.

(٣) انظر: ابن عاشور، محمد الطاهر (ت ١٩٧٣م)، مقاصد الشريعة الإسلامية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دون طبعة وتاريخ، ص٥١، نقلا عن: حامدي عبد الكريم، المدخل إلى مقاصد القرآن، ص ٢٣.

(٤) انظر: الشاطبي، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي، الموافقات في أصول الشريعة الإسلامية، مرجع سابق، ج٢، ص٣٨٥، نقلا عن: حامدي عبد الكريم، المدخل إلى مقاصد القرآن، ص ٢٣.

ويرتبط علم المقاصد بمجموعة من المصطلحات كالحكمة والعلة، إذ العلة هي: «الحكمة المقصودة من تشريع الحكم»[1].

فالعلة هي سبب وضع وتشريع الحكم.. والمقاصد هي المصالح المترتبة عن الحكم الآجل والعاجل.

والحكمة هي: «المعنى المقصود من تشريع الحكم لتحقيقه أو المصلحة، التي قصد الشارع من تشريعه الحكم تحقيقها»[2].. فالحكمة والمقاصد شيء واحد ومعنى واحد.. فحكمة الشارع هي مقصده.

ومن هنا نتبين أن العلة والحكمة والمقصد، مع بعض آليات الشريعة الإسلامية كالتيسير والتخفيف ورفع الحرج عن المكلفين، مصطلحات لعلوم ذات علاقة وطيدة بفهم وفقه (النص) الحكم التشريعي، فالعلة سبب تشريعه، والمقصد معرفة مصلحته من مفسدته على المكلفين، والحكمة اكتشاف المقصود من تشريعه[3]، وبعض آليات تطبيقه كالتخفيف والتيسير ورفع الحرج أسرة معرفية ومصطلحية ومنهجية واحدة تسير كلها في اتجاه علم المقاصد.

---

(١) بركات أحمد بني ملحم، مقاصد الشريعة الإسلامية في الشهادات، مرجع سابق، ص٣٣.

(٢) بركات أحمد بني ملحم، مقاصد الشريعة الإسلامية في الشهادات، ص٣٣ – ٣٤.

(٣) انظر: بركات أحمد بني ملحم، المرجع السابق نفسه؛ وحامدي عبد الكريم، المدخل إلى مقاصد القرآن، ص٣٨.

١- ٥- علم فقه الواقع:

هذا مصطلح مركب إضافي من ثلاث كلمات (علم، فقه، واقع):[١]

١- ٥- ١- فقه:

تدل المادة اللغوية لجذر كلمة (فَ، قِ، هَ) على جملة من المعاني، أهمها:

١- الفقه: هو العلم بالشيء والفهم والفطنة له.

٢- الفقه: اسم علم غلب على علم الدين[٢].

٣- الفقه: هو فهم غرض المتكلم من كلامه[٣].

فالفقه في اللغة هو: الفهم المطلق، سواء أكان الأمر دقيقا، أم بديهيا، ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ ﴾ (هود: ٩١)، وقوله تعالى: ﴿ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (النساء: ٧٨)[٤].

والفقه اصطلاحا هو: «العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية»[٥].

---

(١) سبق شرح كلمة علم في جزئية (علم المقاصد).

(٢) انظر: الفيروز آبادي، معجم قاموس المحيط، ج٤، ص٢٨٩، بتصرف.

(٣) انظر: الجرجاني، علي بن محمد الحنفي، ص١١٩.

(٤) انظر: هيتو محمد حسن، الوجيز في التشريع الإسلامي، ص٢٦، بتصرف.

(٥) انظر: الجرجاني علي بن محمد الحنفي، ص١١٩. قال الجرجاني: «هو الإصابة والوقوف على المعنى الخفي الذي يتعلق به الحكم، وهو علم مستنبط بالرأي والاجتهاد، ويحتاج فيه إلى النظر والتأمل، ولهذا لا يجوز أن يُسمى الله تعالى فقيها، لأنه لا يخفى عليه شيء»، المصدر نفسه، ص١١٩.

والفقه الذي نعنيه هنا هو الفقه الأكبر، والبعد الفقهي المقاصدي والواقعي الأكبر للدين، والرؤية الاستراتيجية لتعاليم الدين وتطبيقاتها الدقيقة والصحيحة في الحياة والناس.

١- ٥-٢- الواقع:

تدل المادة اللغوية لجذر كلمة (وَ، قَ، عَ) على جملة من المعاني، أهمها:[١]

١ – وقع وقوعا، أي: سقط وهوى.

٢ – ثبت، برك، ربض، لقوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ (الواقعة:١).

٣- وقيعة: صدمة، وواقعة: نازلة وحرب وصدمة، كوقائع العرب، أي: أيام حروبها.

٤- واقعة ووقيعة: حادثة ونازلة مفاجئة.

٥- واقع: اسم فاعل من وقع الشيء، أي: وجب، ووقع القول، أي: ثبت، لقوله تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف:١١٨)[٢].

---

(١) انظر: الفيروز آبادي، معجم قاموس المحيط، ج٣، ص٩٦- ٩٧، بتصرف.. ومن معاني مصطلح الواقع كما عرفه الجرجاني، في كتابه التعريفات: «الواقع عند المتكلمين هو: اللوح المحفوظ، وعند الحكماء هو العقل الفعال»، ص١٧٤، باب الواو.

(٢) انظر: ابن بية، عبد الله بن المحفوظ، تنبيه المراجع على تأصيل فقه الواقع، دون دار، الإمارات العربية المتحدة، طبعة خاصة بهيئة تعزيز السلم في المجتمعات الإسلامية، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م، ص٢٠، بتصرف. ويرى ابن بية برؤية أصولية فقهية أنواعا كثيرة من فقه الواقع، كفقه الوقوع أي التنزيل، وفقه التوقع، والتموقع، ووسائل التعرف على الواقع، وبرهان تأثير الواقع في الأحكام من الكتاب والسنة وعمل السلف. المرجع السابق، ص٢٢.. ٤٢.

٦- وقع بمعنى وجب، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ (النمل:٨٢).

ومن خلال هذه المقاربات اللغوية نتبين الوجه المراد من كلمة واقع، فهو كما نتبين يعني ويدل على: محصلة ومجموع وتفاعل مكونات ما هو موجود وكائن وحاصل وواقع، حياتيا وواقعيا ماديا وشيئيا ومعنويا وروحيا وثقافيا، في زمان أو مكان أو كيان ما والفرد جزء ومكوِّنٍ من مكوناته.

والكلمة كمصطلح يراد بها – لغويا واصطلاحيا أيضا- ما كان مشاهدا أو قائما أو محسوسا أو معلوما أو كائنا أو حاصلا على رقعة ما من بساط الأرض، له دوره وتأثيره ومكانته في تحديد سير الفرد والجماعة والكيان[1].

---

(١) ثمة من عرّف الواقع وفقه الواقع من الناحية الاصطلاحية، مثل «نور الدين الخادمي في كتابه الاجتهاد المقاصدي، كتاب الأمة، قطر، عدد ٦٦»، و«أحمد بوعود في كتابه فقه الواقع أصول وضوابط، كتاب الأمة، قطر، عدد ٧٥»، و«عمر عبيد حسنه، مقدمة لعبد المجيد النجار، فقه التدين فهما وتنزيلا، كتاب الأمة، قطر، عدد ٢٢، ١٤١٠هـ»، و«صديق حسن خان في كتابه أبجد العلوم، الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، تحقيق عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م»، و«ناصر العمر في كتابه فقه الواقع»، و«مصطفى مخدوم، فقه الواقع، على شبكة المعلوماتية»، و«ناصر الدين الألباني في كتابه سؤال وجواب حول فقه الواقع، دار الجلالين، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م»، و«محمد محمود الجمال، إدراك الواقع وأثره في ضبط الفتوى، كتاب الأمة، قطر، عدد ١٧٤، رجب ١٤٣٧هـ»، وغيرهم.. انظر: محمد محمود الجمال، إدراك الواقع، المرجع السابق، ص١١- ١٧.

التعريف الاصطلاحي لعلم «فقه الواقع»:

١- ٥- ٣- محاولة صياغة تعريف:

فعلم فقه الواقع[١]، هو:

محصلة وعي وفقه القائم على صناعة وتشكيل وصياغة إحداثيات الخطاب الديني[٢]، وتنزيلاته على مجموع ومكونات وتفاعل العناصر المادية والمعنوية والأدبية المتشابكة وذات الصلة والعلاقة الوطيدة بوجود وبقاء واستمرار الفرد والجماعة والمجتمع والكيان، سُنَنياً وزمكانيا وكيانيا وإمكانيا[٣].

وعليه، فخصائص ومميزات هذا التعريف هي:

١- خلاصة ومحصلة وعي وإدراك وإحاطة عقلية شاملة.

---

(١) كما تبين لي من خلال استقراء وتحليل وتجميع واستجلاء مجموع التعريفات السابقة الذكر والمتنوعة معرفيا ومنهجيا.

(٢) مكونات الخطاب الديني المرجعي المستنبط من (الكتاب والسنة وفهوم وعمل الصحابة والتابعين وتابعي التابعين والذين يلونهم من خيار سلف وخلف الأمة من جيل المؤسسين والمنظرين والمحققين والشارحين..)، هي: «الخطاب التوحيدي العقدي، الأصولي، الفقهي، المقاصدي، الدعوي، الاجتهادي، القضائي، الإصلاح الاجتماعي والسياسي والتربوي والتعليمي والثقافي والفكري.. ».

(٣) ركن الوعي مكوِّنٌ أساس في تعريف وفهم العملية كلها، ويجب أن يكون نوعية هذا الوعي إسلاميا، لا وعيا علمانيا أو إلحاديا، أو وعيا سكونيا، أو سلبيا، أو مصلحيا.. لمزيد من التوسع: انظر: عيساوي، أحمد محمود، تيارات وقضايا فكرية معاصرة، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى،١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ص١٤٢.

٢ – ركن الفقيه والداعية الواعي والمدرك أساس في نجاح العملية.

٣ – ركن حِذْق فقه التنزيل أساس في نجاح العملية.

٤ – ركن الإلمام والإحاطة الشمولية بتفاعلات المكونات المادية والمعنوية الواقعية أساس في العملية.

٥- ركن القراءة السُننية والتفاعلية الشمولية لأبعاد الواقع الزمكانية والكيانية والإمكانية أساس في نجاح العملية.

١- ٥- نجاح:

تدل المادة اللغوية لجذر كلمة (نَ، جَ، حَ) على جملة من المعاني، أهمها[١]:

١- نجح، أي: ظفر بالشيء.

٢- نجح وأنجحه الله، أي: يسر له.

٣- النجيح، الصواب من الرأي.

٤- نجح أمره، أي: تيسر وسهل فهو ناجح.

ومن خلال هذه المقاربات اللغوية نتبين أن المراد منها هو: تيسير الأمر وسهولته، وهو ما نبتغيه للداعية في عمله الدعوي حال إتقانه وتحكمه في علمي المقاصد وفقه الواقع.

---

(١) انظر: الفيروز آبادي، معجم قاموس المحيط، ج١، ص٢٥١، بتصرف.

١- ٦- العمل الدعوي:

١ – ٢ – ٤ – أ- العمل الدعوي:

من فعل عَمِلَ، كَفَرِحَ، من العمل، والعمل أخص من الفعل؛ لأن الفعل يصدر عن الإنسان والحيوان، كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الروم: ٤٠).

والعمل حركة البدن كله أو بعضه، ويُطلق على حركة النفس، فهو إحداث أمر، كان قولا أو فعلا بالجارحة أو القلب[١].. ومنه، نتبين المعنى المراد لإشكاليتنا، وهو الحركة الكاملة والشاملة للإنسان.

وبعد أن تمهدت لنا الرؤية التعريفية اللغوية والاصطلاحية لمفاهيم بحثنا الأساسية، واتضحت لنا المعالم الكبرى للرؤية الآفاقية، التي نود استقصاءها وتبيّن أهميتها وقدرها ومكانتها، نحب فقط أن نصطفي نماذج لأمثلة قرآنية ونبوية وراشدة ومن عمل السلف الصالح لفتح باب رؤيتنا للموضوع المدروس في المبحث الموالي.

(١) انظر: الزبيدي، محمد المرتضى، تاج العروس من جوار القاموس،مرجع سابق، ج٨، ص٣٤، بتصرف.

المبحث الثالث

معالم مرجعية أنموذجية واقعية مقاصدية

وما يدعم هذه الرؤية المقاصدية الواقعية أن كل قيم الدين الإسلامي وكل أحكامه الشرعية التطبيقية العملية تسير وفق هذه الرؤية التوحيدية الإلهية الخالصة، وتهدف منها أيضا إلى تحقيق الرؤية المصلحية لسعادة الناس في عاجلهم الدنيوي وآجلهم الأخروي؛ لأن علم المقاصد وفقه الواقع ركنان رئيسان في عملية وعي الذات الإنسانية بربها فتوحده وتعبده، وتساهم في وعي أحكام الشريعة الربانية المنزلة للبشر للارتقاء بهم، فهي الخطة الرشيدة والمشروع الحكيم والمتكامل لإحداث التغيير النفسي والذاتي والاجتماعي والحضاري المطلوب حال تفاعل مع نصوص الشرع بوعي وإدراك.

وذلك لأن الوعي لصيق بالإنسان، ولأن التيه والطلاسم والعمى أغلال تأسر النفس والعقل السوي، ولا تفرز لنا سوى فهماً وشعورا ووجدانا وسلوكا عميّاً، ولأن: «.. التوحيد هو المحور الذي تدور عليه العبادات، فإذا كان مختلا أو مشوبا بالحس كانت عائدة ذلك الاختلال وتلك الشوائب على تأثير العبادة في النفس، لأن بذور الشرك والوثنية تنبت في هذا الوسط الموبوء بالأفكار القاتلة، التي جعلت مفهوم العبادة شكلا أجوف من الطقوس المبهمة، فالعبادات ليست خدمة نقدمها إلى الله كما يتقدم الكهان بالقرابين

الحسية بين يدي الأوثان، بل هي خطة إلهية في الارتقاء بالنفس، وطريق قاصد إلى بلوغ كمالها، كما قال تعالى: ﴿ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ (فاطر:١٥)؛ لأن كلمة التوحيد، التي غيرت العالم لم تعد تؤثر في أنفسنا؛ لأننا نحمل ميراثا مثقلا بالخرافات من رواسب التوحيد التقليدي، الذي قامت على أنقاضه الوثنيات القديمة؛ لأنه فقد روحه وتحول إلى طقوس شكلية وكلمات باهتة يتحرك بها اللسان ولكن العقل غافل عن حقيقتها، والقلب فارغ من معانيها، والضمير محجوب عن فاعليتها، والسلوك مناقض لمقتضياتها»[1].

ومن هنا كان الوعي بمقاصد التنزيل، واليقظة بإحداثيات وبواقع محل التنزيل، هو المقصد الأصلي الكبير من تنزيل الشريعة على الناس، وقد حاول الشيخ «محمد الغزالي» الخروج به من المسار الفقهي نحو الدروب الأوعى والأوسع له في مجال العقائد وتأثريتها الإيجابية والفعالة في النفس؛ لأن إهمال علم المقاصد وفقه الواقع ومحل التنزيل وحصره في المجال الفقهي تعطيل لفاعلية العقل والنفس السوية، ولاسيما في كتابه «فقه السيرة»، وفعل مثله الشيخ «محمد سعيد رمضان البوطي» في كتابه «فقه السنة»، متجاوزين جهود «أبو المعالي الجويني» و«العز بن عبد السلام»، و«أبو إسحاق الشاطبي»، الذين قصروه على الناحية الفقهية الشكلية فقط.

---

(١) خليل عبد السلام، خواطر في مقاصد الصيام، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م، ص٢١-٢٢.

والأمثلة في ذلك كثيرة جدا نسوق مثلا من كل مصدر، أولها: من القرآن الكريم، وثانيها: من السنة النبوية المطهرة، وثالثها: من سيرة ومنهج الخلفاء الراشدين، رضوان الله عليهم، لنتبين من خلالها العلاقة الوطيدة بين علم فقه الواقع والمقاصد وفقه محل التنزيل، وأثرها على تزكية ونمو النفس السوية.

– أولاً: مثال قرآني مقاصدي واقعي:

النهي عن كثرة السؤال بإطلاق مع تقييده مراعاة لمقاصد شرعية كبرى، وخبرة بواقع مجتمع الصحابة، رضوان الله عليهم، الناشئ والذي لا ينفعه كثرة السؤال والجدل، فقد جاء في تفسير وشرح قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ (المائدة:١٠١)، أنه لا هو نهي بإطلاق، ولا اتجاه إلى إلجام ألسنة الصحابة، رضوان الله عليهم، فيما يثبت نفعه وانتفاء ضرره.

ويروي الصحابي الجليل أبو هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**»[1].

(١) أخرجه البخاري، في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

وفي هذا السياق يورد الشيخ «محمد سعيد رمضان البوطي» [1] – أثناء تناوله كراهة كثرة الرأي في الدين، الذي شاع بين الصحابة، رضوان الله عليهم– آراء فصيل من العلماء الفقهين لحقيقة المسألة، فيقول:

«... أما النهي الوارد عن كثرة السؤال، فمن الخطأ أن يفهم على إطلاقه، فإن الصحابة ما امتنعوا عن الأسئلة بإطلاقها، ولا اتجه إليهم النهي عنها بعمومها، وإنما الصحيح ما ذكره القاضي «أبو بكر بن العربي»، وأيَّده «ابن حجر» في الفتح[2]، أن النهي إنما اتجه إلى السؤال عن أمور سكت الشارع عن حكمها، والوحي ينزل، ورسول الله ﷺ بين ظهرانيهم، إذ هو لا يعدو أن يكون حينئذ تكلفا واستعجالا للشيء قبل أوانه، فإن الشارع ما سكت عمّا سكت عنه في أثناء نزول الوحي، إلاّ توسعة للعباد ورحمة بهم، فإن الأصل في الأشياء كلها الإباحة، ولو شاء أن يغير الأصل لأنزل وحيا يتضمن ذلك.

ويدل على ذلك حديث البخاري عن الصحابي سعد بن أبي وقاص، مرفوعا: «**إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ، فَحُرِّمَ**

---

(١) تنويه: التخريجات الفنية والتحقيقات المنهجية كتاريخ ميلاد أو وفاة أو بيانات كاملة للمصادر والمراجع ونحوها ضمن النصوص المقتبسة هي من صنع الباحث، ولذلك وضع الباحث عبارة بتصرف في الهوامش.

(٢) العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق وتعليق وترتيب عبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٧٩هـ، ج١٣، ص١٠٦.

مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ»[1].. ويدخل في حكم هذا النوع من الأسئلة – بل هو أشد وأولى بالمنع– السؤال عن أمور غيبية نصَّ الشرع على ضرورة الإيمان بها كما أخبر، دون الوقوف عند البحث عن أي كيفية لها، ومثلها ما ورد الخبر عنه مما لا يدخل في دائرة المحسوسات ولا مثال له في خزانة الخيال، كالسؤال عن الروح، وكيفية حشر الأجساد، ومعظم أنباء الساعة وأحداثها.. ما لا سبيل للعقل المجرد إلى الخوض في تفاصيله..»[2].

فمراعاة واحتياطا لمقصد صلاح الدين والعقيدة والإيمان، ومراعاة لطبيعة وواقع المخاطبين محل التنزيل، واعتبارا لما ينجرُّ عنه من مفاسد وفتن.. جاء التضييق الشرعي هنا على عموم السؤال؛ لأنه بصيانه وحفظ مقصد صلاح الدين نضمن حفظ مقصد صلاح العقل، وبضمان حفظ صلاح مقصد وكلية العقل يصلح مقصد وكلية حفظ صلاح الدين؛ لأن العقل يصير يتلقى معارف وحقائق صحيحة ومضبوطة ومنسجمة ومتناسقة تصلحه وتقيم أمره، وبصلاحهما (الدين، العقل) تصلح كلية ومقصد حفظ صلاح النفس، التي هي محل تعاليم الدين كلها، ومعها تستقيم أمور النسل والحياة والمال وسائر شؤون الكلف.

وبمقابل ذلك التقييد المشروط، فإن الشارع فتح الأسئلة المشروعة، التي تدعو إليها الحاجات الراهنة والملحة، كالاستفسار عن مدلول نص، أو البحث عن تقوية

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة.

(٢) البوطي، محمد سعيد رمضان، السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية عشرة، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، ص ٣٨-٣٩، بتصرف.

وتعضيد جانب ووجه في دلالة نص يُعتد بوجهه على سائر الوجوه الأخرى، كسؤالهم عن الكلالة والخمر والميسر والقتال في الشهر الحرام والمحيض والصيد، بل هو مثار احترام وثناء، فقد أثنت السيدة عائشة، رضي الله عنها، على نساء الأنصار -كما في الصحيحين- من أن حياءهن لم يمنعهن من التفقه في الدين[1].

ومن هذه السياقات النصية والمرجعية والتحليلية نتبين دقة الصنع في عمليات تنزيل النص على الواقع ومحله التكليفي، المراعي لبناء المقاصد الكلية في المنظومة الدينية الإسلامية للمكلف، والمرصوفة بانتظام من لدن خالقها.

- ثانيا: مثال نبوي مقاصدي واقعي:

تروي كتب السيرة[2] وشروح الحديث أن رجلا جاء المسجد النبوي يسأل الناس، فرآه النبي ﷺ يسأل فناداه ليعرف حاجته، فلما علم حاجته، سأله:

---

(١) انظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، السلفية، ص ٣٩-٤٠، بتصرف. والحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن عائشة، رضي الله عنها، حديث رقم ٣٣٢.

(٢) انظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٢٦هـ/١٩١٨م، ج٣، ص١٥٨، باب ما جاء في التعفف عن المسألة. وابن هشام، أبو عبد الله عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، دار الفجر، القاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٤م. وابن كثير عبد الله الدمشقي، السنة النبوية، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م؛ القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، مكتبة الصفا، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م. وغيرهم؛ السيرة الحلبية، وزاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية، وسبل الهدى والرشاد في هدي خير العباد للصالحي، وغيرها..

أعندك شيء في البيت يصلح للبيع؟ فقال: ما لدي سوى إناء من نحاس. فقال: بعه، ثم ايتني، فباعه وأتى النبي ﷺ، فقال: بكم بعته؟ فقال: بدرهمين، فقال ﷺ: درهم اصرفه على أهلك، ودرهم اشتري به فأسا وحبلا واحتطب، ثم قال[1] ﷺ: **لأن يغدو أحدكم، فيحتطب على ظهره، فيتصدق به، ويستغني به عن الناس خير من أن يسأل رجلا أعطاه أو منعه؛ ذلك بأن اليد العليا أفضل من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول**»[2].

وفي رواية أخرى، عَنْ الزُّبَيْرِ ابْنِ الْعَوَّامِ ﷺ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ أحبلهُ، ثم يأتي الجبل، فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ من حَطَبٍ عَلَى**

---

(١) أخرج أبو داود عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَسْأَلُهُ، فَقَالَ: «**أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ**»؟ قَالَ: بَلَى، حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ، قَالَ: «**ائْتِنِي بِهِمَا**»، قَالَ: فَأَتَاهُ بِهِمَا فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ، وَقَالَ: «**مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ**»؟.. قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ، قَالَ: «**مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ**»، مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ، فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الْأَنْصَارِيَّ، وَقَالَ: «**اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ وَاشْتَرِ بِالْآخَرِ قَدُومًا فَأْتِنِي بِهِ**»، فَأَتَاهُ بِهِ، فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُودًا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «**اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ وَبِعْ وَلَا أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا**»، فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشَرَةَ دَرَاهِمَ فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِثَلَاثَةٍ: لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ، أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ، أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ**».

(٢) أخرج البخاري، محمد بن إسماعيل الجعفي في صحيحه البخاري، دار ابن كثير، دمشق، دون طبعة، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، عن أبي هريرة ﷺ.. وفي صحيح مسلم، كِتَاب الزَّكَاةِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَأَنْ يَغْدُوَ أَحَدُكُمْ فَيَحْطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَتَصَدَّقَ بِهِ، وَيَسْتَغْنِيَ بِهِ مِنَ النَّاسِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ رَجُلًا أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْيَدَ الْعُلْيَا أَفْضَلُ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ**».

ظَهْرِهِ، فَيَبِيعَهَا، فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَه، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ، أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ»[1].

والمتوسم في الفعل النبوي الشريف مع هذا الرجل المثخن بالمشكلات يتبين الكثير من الحكم والمعالم المقاصدية والواقعية، الآنية والمستقبلية، في مواجهة المشكلات الطارئة والدائمة، فرسول الله ﷺ حلل واقع هذا الرجل وقدّم له الحلول المستعجلة والآنية، ثم ربطه بأسباب الحل الجذري.

ومما يمكن استنتاجه واقعيا ومقاصديا من فعله ﷺ، الآتي:

١ - إدراك النبي ﷺ لحجم المشكلة على المديين القريب والبعيد.

٢ – إدراك النبي ﷺ لخطورة تفاقم المشكلات وعدم معالجتها في حينها.

٣ – تصميم النبي ﷺ على إشراك المعني بالأمر في إيجاد حلول سريعة وعملية لمشكلته.

٤ – إلقاء حمل حل المشكلة على المعني، وجعله يفكر ليتجاوز تبعات مشكلته التي ستشل قواه.

٥ – تفضيل آلية الاعتماد على الذات قبل الاستعانة بالآخرين ومد اليد إليهم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، حديث رقم ١٤٠١؛ وانظر ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار الريان للتراث، دون مدينة، دون طبعة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

٦ – إيجاد عمل غير مكلف وغير معقد، ولا يحتاج إلى رأس مال كبير (فأس، حبل، ظهر رجل، أو حمار).

٧- استثمار كل الإمكانات الذاتية المتاحة (إناء نحاسي، بيعه، درهمين، تقسيم رأس المال..).

٨- تقديم أفكار لحل المشكلة على المدى القريب، وتوفير الطعام العاجل للعيال.

٩- دفع صاحب المشكلة لركوب الصعاب (الاحتطاب في الصحراء) من أجل الحفاظ على كرامته، وعدم سؤال الناس، في بيئة تعتز بالأنفة والشمم والعزة والكرامة.

١٠- خطورة استفحال وانتشار مثل هذه الظواهر الهدامة في المجتمع المسلم وآثارها السلبية على الفرد والجماعة والمجتمع.

١١- تشجيع النبي ﷺ لآلية العمل كمحرك طبيعي لنهضة الأمة.

وهنا –كما ترى- يبدو الحضور القوي لأبجديات علم فقه واقع الناس ومشكلاتهم وحلولها السريعة والعملية والناجعة، كما يبدو جليا أيضا الرؤية الاستراتيجية لعلم المقاصد وحفظها وصيانتها، حيث الأصل هو الحفاظ على كليات ومقاصد كرامة الإنسان وكلية ومقصد صيانة عزة نفسه، وكلية ومقصد حفظ عقله من شوائب الانحراف، وكلية ومقصد حفظ تعاليم دينه الصحيحة والسوية، وكلية ومقصد حفظ نسله، من أن يتغذى وينشأ على استمراء قيم

الذل والمهانة والاتكال. وخطورة ترك أفراد المجتمع ينشأون ويتربون على قيم إهدار ما يجب الحفاظ عليه وصيانته، وخطورة ما لهذه التداعيات السلبية من آثارها المدمرة على الفرد والجماعة والمجتمع والكيان، في حالة نشوء أفراده على هذه السلوكات والقيم السلبية الهادمة [1].

– ثالثاً: أمثلة من الخلافة الراشدة:

إن الأمثلة الواردة في كتب السير والمغازي والتفسير وشروح الحديث وكتب الطبقات والرجال ونحوها تشير إلى العشرات من المسائل التي راعى فيها الخلفاء الراشدون علمي المقاصد وفقه الواقع، ومن هذه الأمثلة الكثيرة نصطفي أربعة نماذج لكل خليفة راشدي، نرى فيها مدى اعتباره لواقع الناس ومقاصد حفظ كلياتهم، قبل تنزيل أو تعديل فهم تطبيقات النص.

٣- ١ – الخليفة أبو بكر الصديق ﷺ وقتال مانعي الزكاة:

تشير المصادر الإسلامية المختلفة إلى موقف الخليفة الراشدي أبي بكر الصديق من مانعي الزكاة، وتصميمه على قتالهم، فقد رأى بثاقب نظره أن مقصد وكلية حفظ الدين سينخرم، على الرغم من مخالفة الكثير من الصحابة

---

(١) هذا مثال نبوي واحد، وفي ثنايا الدراسة سنعرض لأمثلة نبوية تجسد فيها بوضوح علم المقاصد وعلم فقه الواقع، واعترافه ﷺ بخطأ رجال سرية أرض نخلة بقيادة عبد الله ابن جحش والقتال في الشهر الحرام، وكمحاولته ﷺ في غزوة الأحزاب مصالحة غطفان على ثمار المدينة حقنا لدماء المسلمين، وكعدوله ﷺ عن تهديم الكعبة وإعادة بنائها وضم الحِجْرِ إليها خشية تضعضع إيمان حديثي العهد بالإسلام.. وغيرها كثير.

رضوان الله عليهم أجمعين له في الرأي الاجتهادي الذي سلكه، ولكنهم انصاعوا لرأيه لاستنادهم إلى نص قطعي وهو وجوب طاعة الإمام.

وتنصب رؤية الصديق ﷺ أن امتناع جماعات من المسلمين عن تأدية حق وفريضة من فرائض الإسلام تمردا وعصيانا وخروجا على سلطة الدولة، وفكا لارتباطهم بالأمة والجماعة المسلمة، ولذلك زأر زأرته المشهورة: «وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ».. وهذا تمام السياق:

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: لَمَّا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ بَعْدَهُ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِأَبِي بَكْرٍ: كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ، وَنَفْسَهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ**»؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ:

وَاللهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: فَوَاللهِ، مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقّ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، حديث رقم ٦٥٢٦؛ وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، حديث رقم ٦٨٥٥؛ ومسلم في كتاب الإيمان، حديث رقم ٢٠.. والعَناق: جذعة المعز، وفي رواية عِقال بعير.

وهو –كما ترى– ينطلق من فهمه لمقاصد حفظ كليات الدين من جهة، لأهمية ومكانة وقيمة ركن وكلية مقصد حفظ الدين، الذي تترتب عليه حفظ كليات ومقاصد الدين الأخرى. كما انطلق أيضا من خبرته بواقع المسلمين يومها، واستعدادهم للذود عن تعاليم دينهم، وحفظ هيبتهم ودولتهم، والذَبِّ عن إرث وجهاد وتضحية ودعوة ومكابدة نبيهم محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين.

وليست هذه للصديق ﷺ، ولا لعهده فقط، بل له أخرٌ، فقد قرر له الصحابة، رضوان الله عليهم أجمعين، أن يتوقف عن العمل لكسب القوت بعد أن نزل للسوق يتاجر فقرروا له نصيبا من بيت مال المسلمين نظير تفرغه للقيام بأعباء الخلافة، وجمع الصديق ﷺ المصحف الشريف، وأوصى بالخلافة من بعده لعمر ﷺ، وغيرها مما راعى فيه حفظ مقاصد الشريعة، وفقه واقع الناس.

٣- ٢ – الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ وأرض السواد بالعراق:

تشير مصادر السنة والتاريخ الإسلامي أن الخليفة الراشدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قد وقف موقفا متميزا حيال أرض سواد العراق، فقد عقد عمر ﷺ ثلاثة مجالس شورية للبت في نازلة أرض السواد الخراجية بالعراق ورجح رأي عمر ﷺ كرأي أغلبية الصحابة، رضي الله عنهم، مراعاة للمصلحة الراجحة وفقهاً للواقع الجديد، حيث تغيّرتْ هذه المرة مادة الغنيمة من أشياء

ومنقولات إلى أراض زراعية خصبة مجهزة بمزارعيها والقائمين عليها، ولمقصد خشية انشغال الصحابة بالعمل في تلك الأراضي ونسيان أمر نشر الإسلام وتوسيع دائرة الدولة الإسلامية وتقويض دعائم قوى الشر والطغيان ممثلة في دولتي الفرس والروم، على الرغم من مخالفة رأى أقلية من الصحابة، رضوان الله عليهم، كعبد الرحمن بن عوف وبلال الحبشي، الذين وقفوا على ظاهر آية تقسيم الغنائم في سورة الأنفال: ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الأنفال: ٤١).

فمراعاة لإحداثيات فقه الواقع ولمقاصد الدين الكبرى فقد نهج هذا المسلك، ولو ترك الصحابة يستوطنون تلك الأرض لانحبس نور الإسلام هناك، ولربما انطفأ كما ذهب إلى ذلك جمهور الصحابة ومن بعدهم التابعين والفقهاء.

وليكاد يكون منهج الخليفة الراشدي عمر ﷺ مشبعا بالحكمة ومحوطا بالرشاد ومتميزا في مراعاة فقه الواقع ومقاصد الدين الكبرى، من الوقوف على ظواهر دلالات النصوص، فقد رأى بفقهه للواقع ولمحل التنزيل وبثاقب نظره المقاصدي أن نص قطع يد السارق لا تنزل على محلها (العبد الذي سرق الطعام) في عام الرمادة سنة ١٥هـ، وقد زاد ﷺ في حد متعاطي الخمر وزاد في عدد الجلدات لكثرة معاقرة الناس للخمر في بلاد الهلال الخصيب (بلاد الشام

والعراق)، وألغى نفي وتغريب الزاني الأعزب مدة عام مراعاة لفقه الواقع وحفاظا على الكثير من مقاصد الدين، وألغى بثاقب حكمته سهم المؤلفة قلوبهم مراعاة لواقع ومقصد عزة الدين الإسلامي، وجعل الخلافة من بعده شورى، وفي رجوعه في مسألة شهادة الرجال إلى شهادة العدول بعد رسالته الشهيرة في القضاء لعامله على الكوفة الصحابي الجليل عبد الله بن قيس أبو موسى الأشعري[1].

٣- ٣- الخليفة عثمان بن عفان ﷺ ومسائله الاجتهادية:

كما تشير مصادر السنة وكتب الحديث أن الخليفة الراشدي أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ راعى بعمق ودراية واقع الناس بعد انتشار الإسلام ودخول الناس في دين الله أفواجا وتوسع آفاق الكيان الإسلامي ودولته، وفَقِهَهُ فقها مقاصديا وواقعيا جيدا ودقيقا ومنضبطا، وحافظ - باجتهاداته وآرائه وبصيرته- على الكثير من مقاصد الدين، كجمع الناس على مصحف واحد وإحراق ما سواه، وصلاته بالحج صلاة رباعية كاملة دون قصر وجمع اقتداء بسنة رسول الله ﷺ، مراعاة لكثرة الداخلين في الإسلام من الأمم المفتوحة، حتى لا يتسرب إلى خلد بعضهم ويظنوا أن الصلاة الرباعية قد أصبحت مقصورة أبدا لا رخصة مؤقتة في موسم الحج، فقطع الشك باليقين تنزيلا لا نسخا. وغيرها من الاجتهادات التي تنظر لفقه الواقع ومراعاة للمقاصد

(١) انظر: موطأ الإمام مالك، باب الأقضية وما جاء في الشهادات شرح الزرقاني، ج١، ص٦٢- ٦٣؛ والسيوطي في تنوير الحوالك.

الكبرى للإسلام، ولاسيما بعد كثرة الداخلين في دين الله أفواجا من الشعوب والأمم المغلوبة[1].

فرأى بثاقب نظره أن حفظ تعاليم دينهم سوية صحيحة سبيل لحفظ عقلهم من الانحراف، وبالتالي سيحفظ أنفسهم من تهلكات الخرافات والأساطير والأوهام والانحرافات، ما يؤدي بهم تبعا لحفظ نسلهم أيضا من خلل تلقي التربية الدينية الفاسدة المنحرفة، وهو أيضا سبيل إلى حفظ مالهم؛ لأنه بتعاليم الدين السوية وبالعقل المشبع بالقيم الدينية الصافية والسوية سيمارسون نشاطاتهم ويحيون حياتهم السوية، وهكذا تكتمل وتكون الحياة الإسلامية الراشدة السعيدة.

وقد أحدث ﷺ الأذان الأول يوم الجمعة قبل دخول وقت الظهر على داره في الزوراء لما توسعت المدينة وكثر الناس، واحتاج أهلها إلى إخبار مسبقٍ ليعلموا بقرب دخول الوقت الفعلي للظهر الذي تصلى فيه صلاة الجمعة، ولم يعد يكتفي بالأذان الذي يُرفع عند بداية صعود رسول الله ﷺ المنبر؛ لأن المدينة توسعت، ولم يعد الأذان كافيا لإبلاغ من هم في ظواهر المدينة[2].

---

(١) ومن مسائله الاجتهادية مراعاة لفقه الواقع والمقاصد، توريث المطلقة في المرض مع تماضر زوج عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنهما التي طلقها في المرض وورثها عثمان، ووكل دفع الزكاة للمزكين أنفسهم منعا من جور وخيانة الجُباة، وأقطع بعض الأراضي الخراجية لثلاثة من الصحابة كسعد وعبد الله بن مسعود وخباب بن الأرت.

(٢) انظر: البوطي، محمد سعيد رمضان، السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، مرجع سابق، ص ١٥٥.. والمسألة مفصلة في صحيح البخاري، كتاب صلاة الجمعة، باب الأذان يوم الجمعة، وغيره.

فأنت ترى أن الخليفة عثمان قد راعي فقه الواقع والمقاصد وخالف ظاهر النص من الكتاب والسنة في مواضع (إحداث الأذان الأول في صلاة الجمعة)، وعاد إليها قصدا في مواضع أخرى (الصلاة الرباعية في الحج وترك القصر رخصة) مراعاة لحال وواقع المسلمين والدولة الإسلامية، ولمقاصد حفظ الدين.

٣- ٤- الخليفة الراشدي علي بن أبي طالب ﷺ:

كثرت الفتن في عهد الخليفة الراشدي علي بن أبي طالب ﷺ والخروج عليه ورفض طاعته والانصياع إليه، وتكونت الفرق والجماعات المقاتلة، ولذلك اعترضت المسلمين أول ما اعترضهم مسألة الاقتصاص من قتلة عثمان ﷺ ولكن الرأي يومها سار إلى أنه لا يُقتص من القاتل حتى يجتمع المسلمون على إمامهم، وهم منقسمون مازالوا لم يجتمعوا على أيٍّ منهما، عليه هو ﷺ وعلى معاوية بن أبي سفيان ﷺ[1].

وبخلاصة تدبرية مقتضبة من مجموع الأمثلة والنماذج، التي سقناها نتبين أهمية ومقصد وعي مسألة اكتمال وحدود وضوابط ختم الرسالة بثوابتها ومتغيراتها، وما تركته ثابتا مقطوعا باتباعه والأخذ به، وما تركته قابلا للاجتهاد حيث لا مورد للنص ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ﴾ (المائدة:٣) وآليات وإحداثيات وكيفيات التعامل مع النصوص القرآنية والنبوية وتنزيلها في واقع الحياة والناس من جهة ومراعاة الحفاظ على

(١) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج١٦، ص٣١٨.

مقاصد الدين والشريعة الكبرى من جهة ثانية، وذلك وفق آليات التدرج والمرحلية والسُننية ونواميس النفس البشرية كالقدرة والاستطاعة والترخيص والعزيمة والاحتمال.. من جهة ثالثة، وواقع وحال الناس وظروفهم ودوافعهم ومتغيراتهم الحياتية المتطورة الجديدة من جهة رابعة، دون إغفال أو إشاحة عن طبيعة ومكونات الفرد والجماعة والأسرة في ظل الظروف المحلية والعالمية الجديدة، وترك مواجهة الواقع والهروب إلى أحلام التاريخ والمجد التليد والماضي الغابر للقرون الهجرية الثلاثة الأولى[1]، والنكوص إلى محاولة استرداد الأنموذج من غير فقه واقع ومقصد وتنزيل.

وعليه، فمراعاة واقع الناس من جهة، والحفاظ على مقاصد الدين من جهة ثانية، وانضباط العقل الاجتهادي الصارم بضوابط وكيفيات وآليات إنزال النصوص في محلها الحقيقي من جهة ثالثة، والاجتهاد في ما لا مورد فيه من النصوص من جهة رابعة، أو في كيفيات تقليب وتدبير وتدوير الوجوه الراجحة والمفيدة للنصوص (الكتاب والسنة) في وجوهها الشرعية من جهة، هو عين

---

(١) حديث: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي**» الذي يرويه البخاري، عن عبد الله بن مسعود ﷺ فيقول: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ**» حديث لا يؤخذ بمطلق الخيرية وعمومها، وليسوا هم جميع الناس الذين عاشوا في تلك الفترة؛ لأن في هذه الفترة ظهرت الفرق والزندقة والقدرية والجبرية والطعن في الدين ووضع الحديث والفرق الضالة والتشيع ونحوه.. فهي كما يذهب ابن عبد البر في (فتح الباري على صحيح البخاري، طبعة الميمنية، ج٧، ص٤) بأنها ثابتة لمجموع وعموم المسلمين خلا هاتيك الطوائف المتزندقة والغنوصية والمتهتكة.. وقد يأتي من بعد القرون الثلاثة الهجرية الأولى أفراد تنطبق عليهم تلك الخيرية، فالإطلاق والتعميم هنا ليس للكل.. لمزيد من التوسع انظر: البوطي، سعيد رمضان، السلفية مرحلة زمنية مباركة، مرجع سابق، ص٢٠.

ما يجب أن يتوخاه الدعاة والقائمين على صناعة الخطاب الدعوي لنجاح عملهم الدعوي، محليا وإقليميا وعالميا، ولأن تحجيم ولجم العقل عن التجوال والترحال العقلي الإبراهيمي – نسبة لسيدنا إبراهيم الخليل ﷺ– كما في سورة الأنعام آيات (٧٥-٧٩)، في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ۝ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝ ﴾ (الأنعام:٧٥-٧٩).

وفي سورة البقرة، في قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ ﴾ (البقرة:٢٥٨).

وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِيۖ قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗاۚ وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝ ﴾ (البقرة:٢٦٠) في مقاصد التوحيد والعبادات تعطيل لطاقاته الإيجابية والفاعلة في فهم الحكم والغايات منها، وهو ما سنحاول التعرض له في الفصل الثاني، وفي الفصل التطبيقي الثالث، إن شاء الله.

الفصل الثاني

قيمة علم المقاصد وفقه الواقع
وأثرهما في نجاح العمل الدعوي

يتوقف نجاح وتسديد وتأثير الخطاب الدعوي في جمهور المدعوين والمستقبلين على مدى تمكن وتحكم القائمين عليه من حِذْقِ وتمهُّرِ سائر أركانه ومكوناته وخطوطه ومعالمه الكبرى، والإحاطة بالكثير من جزئياته وتفاصيله، فلا يمكننا أن نصل إلى صناعة توجُّه ورأي وسلوك الجمهور المستقبل إن كانت الرؤية إليه منقوصة غير مكتملة.

وعليه، يجب فهم واستيعاب سائر أركان العملية الدعوية، ومن ثَمَّ التحكم في جميع أركانها: الداعية، الرسالة، الوسيلة، الأسلوب، الجمهور، قياس وتتبع الأثر، ردة الفعل المرجوة والمنتظرة، أو غير المحسوبة وغير المنتظرة؛ تحكما ماهرا وجيدا لضمان نجاحها وتسديدها.

وسبق أن عالجنا في بحوث ودراسات سابقة[1] التعثرات، التي تنتاب وتصيب العملية الدعوية برمتها وفي سائر أركانها، وتفضي بها للفشل وللعطب السريع، فتستحيل إلى مجرد نشاط أو فعل غير ناجعٍ ومؤثر، لاعتبارات وعوامل كثيرة، كإهمال استكمال وتحضير متطلبات ركن من الأركان، أو تغليب وتفضيل ركن على آخر، أو إهمال ونسيان ركن رئيس منها، أو بالاعتقاد والتخمين غير الدقيق بأهمية ركن على غيره، أو نحوها من أشكال اللامبالاة والإهمال.. وبالتالي تفقد العملية الدعوية بوصلة وإحداثيات سيرها الصحيح وتسديدها المنشود.

---

(١) انظر مثلاً: عيساوي، أحمد محمود، دراسات وأبحاث في تاريخ الدعوة والدعاة، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ج١، وج٢؛ ومنهج الدعوة عند أنبياء الله نوح إبراهيم يوسف موسى، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م؛ ومنهجية البحث في عملية الاتصال الدعوي، مرجع سابق؛ ومدخل إلى مناهج الدعوة، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م؛ ومدخل إلى علم الدعوة، مرجع سابق؛ والدعوة الإسلامية في قرن التكنولوجيات العولمية، مرجع سابق؛ ومدخل إلى مناهج البحث الدعوي، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٤٠هـ/٢٠١٨م. وكتب مخطوطة وتحت الطبع مثل: (مدخل إلى الفكر الإسلامي)، و(الحركات التجديدية والإصلاحية في العالم الإسلامي)، و(رؤى استراتيجية لتجفيف منابع الإرهاب).. إضافة إلى كثير من الأبحاث والدراسات والأوراق في مؤتمرات دولية داخل الجزائر وخارجها.

وبعد سلسلة تلك الدراسات والبحوث، التي تناولنا فيها سائر الأركان، من وجهات نظر ونظريات وزوايا متعددة، فإننا نسعى اليوم إلى تناولها من وجهة نظر واقعية ومقاصدية كبرى؛ لأن «.. المقاصد هي عقل الشريعة، الذي يعطيها بعدها الإنساني العالمي المشترك، وإذا فقد العقل القدرة على إدراك الكليات التي تحققها المقاصد فإنه يفقد قدرته على التمييز، وينغمس في الجزئيات، ولا يحسن الاستفادة من قراءاته ولا من تجاربه، وتتعطل فيه بوصلة الزمن فيتيه في مفاوز قضايا التاريخ بعيدا عن قضاياه الراهنة وأهدافه الحقيقية، وربما يُرفع عنه التكليف..»[1].

وبناءً عليه، نرى من الأهمية بمكان معالجة ركن ثقافة ومعارف ومنهج القائم بالعمل الدعوي، ولاسيما مستوى مدى تحكمه وتمكنه من علمي المقاصد وفقه الواقع، الذين يشكلان العمود الفقري لثقافة الداعية الأساسية، وذلك عبر المباحث الآتية:

المبحث الأول: علم المقاصد وفقه الواقع قيمة دعوية مركزية في هذا الدين.

---

(١) خليل عبد السلام، أبعاد المشروع الفكري عند الشيخ محمد الغزالي، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م، ص١٩٠.

المبحث الثاني: علم المقاصد وفقه الواقع قيمة دعوية مركزية لنجاح العمل الدعوي.

المبحث الثالث: علم المقاصد وفقه الواقع قيمة دعوية مركزية لنجاح الداعية.

المبحث الرابع: علم المقاصد وفقه الواقع قيمة دعوية مركزية مؤثرة في أصناف وفئات المدعوين: (حقيقيين، مُستقبلين، مرتقبين، متشككين، مناوئين..).

المبحث الأول

علم المقاصد وفقه الواقع

قيمة دعوية مركزية في هذا الدين

يُعد علم المقاصد من بين العلوم الجليلة في المنظومة التشريعية الإسلامية المتسقة، وهو من بين العلوم الأساسية، التي يجب أن يَحْذِقها الداعية ويتمهر فيها [1]؛ لأنها تضمن له الطريق الآمن والمنهج الراجح والصائب للنجاح في

---

(١) العلوم والمعارف والصفات والأدوات التي يجب أن يحذقها الداعية هي:

١- فقه الأطر المرجعية بكافة بواباتها ومداخلها العلمية والمعرفية والمنهجية (القرآن، السنة، أصول الفقه، الفقه، علم الحديث، علم المصطلح والرجال، علم السيرة، علم التوحيد، علوم القرآن، علم اللغة، علم التاريخ..).

٢- فقه الواقع والمواقع والتموقع.

٣- الحس الحضاري والاقتداري والمدني العالي المستوى.

٤- الصفات الفطرية والكسبية والمكتسبة.

٥ – الثقافة الشمولية والرؤية الاستراتيجية الواسعة والواعية.

٦ – الأخلاق الإسلامية العملية.

٧ – الإدراك الشامل لحجم التحديات الإعلامية والثقافية والحضارية التي تواجه الوجود الإسلامي.

وسنتناولها في المبحث الثالث من الفصل الثاني عند تعرضنا لمعالجة أهمية علم المقاصد وفقه الواقع في نجاح الداعية. ولمزيد من التوسع انظر: عيساوي، أحمد محمود، مدخل إلى علم الدعوة، مرجع سابق.

عملية فهم واختيار ما يجب أن يعرفه جمهور المدعوين، كما توفر له قدرا معتبرا من نورانية النظر والرؤية والتوجه الاتصالي باتجاه أصناف الجمهور المدعو، وتضمن له امتلاك آليات الفرز المعرفي والمنهجي الكفيل بنجاح عملية الاتصال الدعوي الآمنة تجاه جمهور المدعوين المختلفين والمتنوعين.

فهو علم أحكام الشريعة الخاصة بحفظ الضروريات والحاجيات والتحسينيات[1]، ذات الصلة الوطيدة بحياة المكلفين، الذين يُطلب منهم – على وجه الوجوب والإلزام – أن يعرفوا ضوابط الشريعة الإسلامية الغراء، كي يتمكنوا من العيش وفق قواعد وضوابط الشريعة، وبناء مدنية مهتدية، ونيل رضى ربهم.

كما أنه علم يفيد العديد من المعاني والفهوم، فالمقصد هو العلة، وهو السر، وهو الحكمة المتوخاة من عمليات التحليل والتعمق في مقاصد الأحكام الشرعية. فالعلة سبب تشريعه، والمقصد معرفة مصلحته من مفسدته على المكلفين، والحكمة اكتشاف المقصود من تشريعه[2].

والتيسير والتخفيف ورفع الحرج آليات مقاصدية في إيصال وتبليغ حقائق الدين وأحكامه لجمهور المستقبلين للخطاب الدعوي، مصداقا لقول الله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ (البقرة: ١٨٥)،

---

(١) انظر: بركات أحمد بني ملحم، مقاصد الشريعة الإسلامية في الشهادات، ص٢٩.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٣٣ –٣٤؛ وحامدي، عبد الكريم، المدخل إلى مقاصد القرآن، ص٣٨.

ولقولـه تعـالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (النساء: ٢٨)، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنْ الدُّلْجَةِ**»[1]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «**أَحَبُّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ**»[2]... وغيرها.

وسنقدم لمحات موجزة تأصيلية في هذا العلم، لنؤسس من خلالها لأمرين أساسين، هما: ما يجب أن يستوعبه وَيَتَمَهَّرَهُ ويحذقه الداعية لنجاح عمله الدعوي في جذب المدعوين نحو رسالة الإسلام التي يدعو إليها، وثانيهما: معرفة واكتشاف أهمية وعلاقة معرفة ظروف وواقع المدعوين؛ لأن «.. علم المقاصد هو الرابط الجامع الذي يحفظ الفرعيات من الشتات والعقل من الذرية والتجزيء المبعثر، الذي حوّل الفقه إلى ملفقات متنافرة بعيدة عن مركزية المقاصد الكلية، التي تضبط التشريع، وتؤلف بين أحكامه، فالمقاصد هي الخيط الناظم الذي يسلك تفاريق حبات الأحكام في منظومة كلية منسجمة ودقيقة، مما يسهل على الفقيه عملية الاستنباط التي تقع في ذلك الإطار وتجري في فلكه..»[3].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، ج١، ص١٦، حديث رقم٣٩.

(٢) أخرجه البخاري تعليقا في صحيحه، باب الدين يسر، ج١، ص١٦؛ وأخرجه أحمد، مسند عبد الله بن العباس، ج ٤، ص ٦٥، حديث رقم ٣٠٣٨.

(٣) خليل عبد السلام، أبعاد المشروع الفكري عند الشيخ محمد الغزالي، ص١٩١.

فعلم المقاصد هو العلم الذي يُعرف به المقصد من التشريع في حفظ الضروريات والحاجيات والتحسينيات للكليات الكبرى (الدين، العقل، النفس، النسل، المال، الوحدة، الحرية، العدل، الحقوق الاجتماعية، المقاصد الآلية كـ: التيسير والتخفيف ورفع الحرج)؛ لأن «.. الأحكام الشرعية ليست ركاما مشتتا ومشوها من الطلبات المجردة والمعزولة عن بعضها، بل هي نظام مترابط بشبكة علاقات متماسكة ومتناسقة، وكل عزل للحكم عن إطاره العام أو الخاص هو تقطيع لصلته بشبكة علاقات المقاصد، الذي يُفضي إلى موته وعدم تأثيره الإيجابي في المكلفين، أي: يتحول إلى فكرة ميتة لها مفعول سلبي»[1].

كما أنه هو: العلم الذي يُكسب المتمهر فيه من الدعاة القدرة والمهارة الشرعية الصحيحة على إنزال النصوص وفق محلها المعني والمقصود، وهو الذي نعنيه بفقه الواقع، بحيث يتيسر للداعية تعليل الكثير من الأحكام الشرعية؛ لأن علم المقاصد هو: العلم بالغايات الكبرى والقيم الكلية السامية للدين، التي تُفضي بصاحبها -إن قُدمتْ له على وجهها الأكمل من قبل الدعاة- إلى صناعة الضمير الحي في الذات الإنسانية السوية، وذلك وفق منهج الله ومراده من تعاليمه وأحكامه التي فرضها وسنها على عباده، أما الفقه فهو: تلك القوانين، التي يتم بها تحقيق تلك الغايات المقاصدية الكبرى، وهو من شأن علم فقه الواقع ومحل التنزيل.

---

(١) خليل عبد السلام، المرجع السابق، ص١٩٠.

ولأن الدين الإسلامي دين عالمي فقد حوى القرآن أكثر من مائة آية كلها تدعو وتنعت هذا الدين بصفة العالمية، والغريب في الأمر أن تلك الآيات كلها مكية، عدا آيتين فهما مدنيتان، وهي قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ (الأحزاب: ٤٠)، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ (آل عمران: ١٤٤)[1].

ولا يمكن أن نحقق عالمية الرسالة إلاّ بتفعيل علم المقاصد وفقه أبعاد وواقع ومحل التنزيل؛ لأن ترك علم المقاصد وإدارة الظهر له يؤدي إلى اختلاط في دقائق العقل، وارتباك في دخائل النفس، وفساد في الواقع والسلوك، ومن ثمَّ اختلال في الموازنات، واضطراب فيما سنقدم عليه أو نحجم عن الخوض فيه أو تقديمه، ومنه يختل مضمون الرسالة الدعوية لدى القائم بالعمل الدعوي، ويفقد عنصر التسديد والدقة.

وهو ما نسعى إلى توضيحه في هذا المطلب لنتبين مقصد حفظ الضروريات وانعكاساته على واقع الجمهور المدعو والمكلف. ونتبين من بعده في المطلب الثاني أهمية فقه الواقع كقيمة دعوية مركزية في هذا الدين وفي نجاح العمل الدعوي.

---

(١) لمزيد من التوسع انظر: الغزالي، محمد، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، دون طبعة، دون تاريخ، ص٣٩.

المطلب الأول

علم المقاصد قيمة مركزية دعوية في هذا الدين

حفظ الضروريات والحاجيات والتحسينيات وأثره على المدعوين

تقودنا الرؤية الدعوية في مجال صناعة وتشكيل قيم ومشاعر ومعتقدات وسلوك المدعوين إلى اعتبار وتقدير الأسس، التي بها يُتوصل إلى بناء أسس التصور القيمي لدى المدعوين، انطلاقا من علمي المقاصد وفقه الواقع عبر أولوية حفظ الضروريات وثنائية منازله الواقعية الحياتية، الواجب على القائم بالخطاب الدعوي مراعاتها والأخذ بها، وثلاثية فقه إحداثيات ومنازل ومُفعلات محل التنزيل، ولعل في مقدمتها:

– أولاً: حفظ الضروريات بين علمي المقاصد وفقه الواقع:

ولحفظ الضروريات «فقد شرع الله لحفظ الدين إيجاب الإيمان، وأوجب الدعوة إليه، وشرع الجهاد، وعقوبة المرتد، والحجر على المفتي الماجن، الذي يحلل المحرم»[1].

وعليه، فالدعوة إلى الله تعالى وإلى دينه الإسلام من الضروريات الأساسية في هذا الدين، بل هي عمود وقوام التعريف بالإسلام لجمهور المدعوين

(١) بركات أحمد بني ملحم، مقاصد الشريعة الإسلامية في الشهادات، ص٣٠.

بمختلف أصنافهم، ولولاها (الدعوة) لما تواصل جمهور المدعوين بتعاليم الإسلام ولا بالمجتمعات الإسلامية، ولا عرفوا حقائقه وقيمه ومثله وأحكامه وشرائعه ومقاصده الإنسانية النبيلة.

ونظرا لما تشكله معارف علم المقاصد في الجدار الدعوي المتين من كونها إسمنت ورابط الأجزاء واللبنات، فهي أشبه بحجر الزاوية في صرح البناء الدعوي الشاهق، وصار الأخذ بها والتمكن منها أحد طرق التعريف بالإسلام الأساسية.

وبهذه الرؤية الاستراتيجية للدعوة ولعملية الاتصال الدعوي الحساسة بجمهور المدعوين، تصير عملية معرفة علم المقاصد واجبا شرعيا للمتصدي للدعوة، ويترتب عليها الكثير من الشروط والواجبات، على رأسها: واجب معرفته لنفسه أولا، وواجب تعليم غيره من المدعوين ثانيا، حتى يقدم لهم النصيب الكافي مما يحتاجونه من قيم وتعاليم الدين الضرورية، وذلك وفق وضعهم وظروفهم وواقعهم، الذي يجب عليه أن يفقه كل مكوناته الشيئية والمعنوية ثالثا.

ولـ «حفظ النفس، فقد شرع الإسلام لإيجادها الزواج للتوالد والتناسل، وشرع لحفظهما وكفالة حياتهما إيجاب تناول ما يقيمها من ضروري الطعام والشراب واللباس والسكن والدواء، وإيجاب القصاص والدية والكفارة على من يعتدي عليها، وتحريم الإلقاء بها إلى التهلكة، وإيجاب دفع الضرر عنها»[1].

---

(١) المرجع السابق نفسه.

ومنه يستفاد وجوب معرفة الدعاة للإسلام كل الحكم والأسرار والمقاصد المترتبة عن حفظ الإسلام للنفس وللعقل، وذلك بتحريم وحظر كل المسكرات والمفترات عنهما، وعقاب كل من يخالف تحريمهما، ولا يتأتى له ذلك بمعرفة الحكم الشرعي ومحل تنزيله فقط، بل من الواجب على الداعية معرفة محل إنزاله الواقعي، ولا يعتمد فقط على الموروث في الفتوى وما جاء في بطون الكتب مما أُفتي به في الأعصار السالفة لعدم صلوحية كثير منها لغيرها.

ولـ «حفظ العرض، شرع حد الزاني والزانية وحد القاذف، وشرع لحفظ المال تحريم السرقة وحد السارق والسارقة، وتحريم الغش والخيانة، وأكل أموال الناس بالباطل وإتلاف مال الغير والتضمين والحجر على السفيه، وتحريم الربا ودفع الضرر، وشرع لتحصيل المال وكسبه إيجاب السعي للرزق وإباحة المعاملات والمبادلات والمضاربة، وكفل حفظ الضروريات كلها، بأن أباح المحظورات للضرورات»[1].

وعليه، وجب على الدعاة للإسلام الإحاطة الشاملة بمقصود الشارع في مجال الضروريات؛ لأنهم النقلة الحقيقيون لأحكام الشريعة الإسلامية، فضلا عن تحيين وتوقيت مقتضيات ومكونات الواقع أثناء عملية الإنزال النصية والحكمية وضمان نجاح عملية المتابعة المقاصدية، فيما يسميه علماء الأصول بـ (تحقيق وتعليق المناط).

---

(١) المرجع السابق نفسه.

وتبعا لما عرضناه آنفا، فإن الأحكام الشرعية المتعلقة بباب حفظ الضروريات تعد شرطا وبابا مهماً، في مجال فهم واقع وظروف الناس لتعليمهم وغرس قيم الشريعة فيهم بناءً على الخطوات الدعوية والأبعاد التأثيرية في أعماق نفوسهم.

وبناءً على تمهر الدعاة وحذق فقه التنزيل والواقع وترسم الأبعاد المقاصدية للقيمة أو للحكم الشرعي في مجال حفظ الضروريات، فإن الأمر لا يختلف في مستوى ومجال حفظ الحاجيات، لأن أي اختلاط أو خطأ في الترتيب والتصنيف يؤدي –لامحالة– إلى التشويش على جمهور المدعوين، وعليه فإتقان الدعاة لهذه المهارة المرحلية والتراتبية بين حفظ الضروريات والحاجيات ونزولها على واقعهم وحالهم مهمة جدا في نجاح العمل الدعوي عموما.

وهو ما سنبينه في مطلب حفظ مقصد الحاجيات مرفوقا بآلية فقه الواقع والتنزيل واقعيا على مختلف أصناف الجمهور المدعو بكافة فئاته، وهو سبيل إتقان صياغة خطاب دعوي وشرعي تواصلي إقناعي معاصر ومقبول، يضمن لجمهور المدعوين الفهم والتقبل والاقتناع والتفاعل والتأثر، ومن ثمة تحقيق وضمان الحد الأدنى من السلوك الديني المنتظر والمقبول شرعيا واجتماعيا.

– ثانياً: حفظ الحاجيات:

شرع الإسلام في مجال الحاجيات أحكاما لحفظها وصيانتها وتمكين المكلفين من معرفتها ومن كيفيات الاستفادة منها، ومن طرق تبليغ المدعوين بها، ولذلك فقد شرع في العبادات الرخص تيسيرا وتخفيفا عن كاهل المكلفين، وهو مما يجب أن يعرفه المدعوون من قبل الدعاة.

كما «شرّع كثيرا من الأحكام في المعاملات، فجعل الكثير من العقود والمعاملات والتصرفات، التي تقتضيها حاجيات الناس، كأنواع البيوع والإيجارات والشركات والمضاربات ورخص عقود لا تنطبق على القياس وعلى القواعد العامة في العقود، وشرع الطلاق للخلاص من الزوجية عند الحاجة، وأحل الصيد وميتة البحر والطيبات من الرزق.. وفي العقوبات جعل الدية على العاقلة تخفيفا على القاتل خطأً، ودرأ الحدود بالشبهات، وجعل لولي المقتول حق العفو عن القصاص»[1].

ومن هنا صار من اللازم على الدعاة وسائر المشتغلين بالعمل الدعوي ضبط وتحرير الفهوم الشرعية الدقيقة والصحيحة حيال القضايا الحاجية في الشريعة والتي تقتضيها حاجيات الناس الأساسية، وتوجيه المكلفين الوجهة المقاصدية السليمة والآنية والواقعية، والأنفع لهم، كي لا تختلط عليهم مسائل الدين، ولا يجدوا حرجا في ممارسة حياتهم وفق ما شرعه الله لهم في واقعهم المعاصر.

ولو لم يعِ الدعاة أو القائمون على صناعة وإعداد وتوجيه الخطاب الدعوي لجمهور المدعوين أهمية البعد المقاصدي في بث الأشعة النورانية في المشهد التعبدي لبقينا نؤدي عبادات باهتة صورية لا روح فيها ولا مقصدا كماليا يُرجى منها، فالعبادات ما هي إلاّ وعاء ومحضن مقدس لمضمون ومحتوى سامٍ وأعمق وأبعد وأغور في النفس الإنسانية السوية، ارتضاه الله

(١) بركات أحمد بني ملحم، مقاصد الشريعة الإسلامية في الشهادات، ص٣١.

وشرعه من تأديتها، على الرغم من قصور العقل في تقصي الكثير من المقاصد والحكم المبثوثة في ثنايا العبادات ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (الإسراء: ٨٥)، إلاّ أنها في غياب المقصد تصبح مجرد طقوس باهته، وعلم المقاصد هو الطاقة الخلاقة والفعالة الكفيلة بتحريك المكلفين نحو معارج النورانية والكمال المقصودة من تأدية العبادات.

– ثالثاً: حفظ التحسينيات:

ومن أجل استكمال المعرفة بفرائض وسنن وواجبات هذا الدين فقد شرَّعَ لهم مستوى التكميليات، التي تضمن لهم الكماليات التكريمية للحياة، وسماها الشاطبي بالأمور التحسينية، التي «..شرع لحفظها أحكاما، ففي العبادات شرع الطهارة للبدن والثوب والمكان وستر العورة والاحتراز من النجاسات والاستسرار من البول.. وفي المعاملات حرم الغش والتدليس والتغرير والإسراف والتقتير، وحرم التعامل في كل نجس وضار.. وفي العقوبات حرم في الجهاد قتل الرهبان والصبيان والنساء والآمنين، ونهى عن المثلة والغدر وقتل الأعزل وإحراق ميت أو حي.. وفي الأخلاق والفضائل فقد قرر أصولا يتهذب بها الفرد والجماعة، وتنهض بالناس خير نهوض»[1].

وعليه، وجب على الـمُعَرِّفِ بالإسلام من جمهور الدعاة الإحاطة الكلية والشاملة والمتوازنة بمستوى الضروريات والحاجيات والتحسينيات في الشريعة

---

(١) المرجع السابق نفسه، ص٣١.

الإسلامية، ليقدمها للناس وفق موقعها ومكانتها ودرجتها ومستواها التكليفي، فلا يؤخر ما حقه التقديم، ولا يقدم ما حقه التأخير، ولا يُحقِّرُ ما حقه التعظيم والإجلال، ولا يُبعد ما حقه الوجود والحضور، وهكذا سائر أصول وفروع الشريعة، علة، وحكمة، وسرا، ومقصداً، لقوله ﷺ : «**إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ، وَلَا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللَّهِ، فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى**»(١).

فالفائدة الجليلة من علم مقاصد الشريعة للدعوة والدعاة، تتلخص في:

قوة علم المقاصد ودقته العملية لفهم النصوص الدالة على الأحكام الشرعية، والتحكم والتقرير فيها حال التعارض والترجيح، والاستنباط والقياس، واعتبار وجاهة الأقوال والآثار المأثورة، ولاسيما أخبار الآحاد الواردة عن الصحابة والتابعين، وقوة الاستدلال بها، واستنباط الأحكام للنوازل والوقائع المستجدة(٢).

وعليه، فهذا العلم (علم مقاصد الشريعة) هو الذي يتيح للقائمين على صناعة عملية الاتصال الدعوي الفهم السوي والعميق والصحيح لنصوص ومقاصد وأحكام الشريعة خلال عمليات إعداد مشروع الخطة الدعوية، ويمكنهم من تسوية أرضية فهم وتصور دينية سوية للأحكام الشرعية على

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى؛ وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، ج١، ص٦٤.

(٢) بركات أحمد بني ملحم، مقاصد الشريعة الإسلامية في الشهادات، ص٣٨ – ٣٩.

وجهها الراجح، واقعيا ومنفعيا ومصلحيا ومقاصديا أيضا، حال وضع اللمسات النهائية على مشروع الخطة الدعوية، لكونه يُشكل مِحْرارا معرفيا ومنهجيا ومَعْلميا وواقعيا لمنازل ومَجَّالِ الخطاب التكليفي أو الوعظي الإرشادي، لاسيما وأن الأقوال والأخبار الواردة في أي مسألة من مسائل الدين كثيرة وكثيرة جدا، فهو الفيصل الفاروق الفاري في يد القائمين على صناعة الخطاب الدعوي السديد الهادف والناجح.

كما أنه يضطلع بدور التنوير والطمأنة للقائمين على صناعة الخطاب الدعوي حال قيامهم بعملية التنفيذ والمتابعة والتقييم والتقويم.. فبه ومن خلاله يتمكنون من تتبع مواطن التسديد، أو مواقع الخلل والعطب في المشروع.. وبه يتمكنون من تحديد مكمن الخلل، ومكان وزمان وقوعه، أهو في الخطاب نفسه؟ أم في محل إنزاله الخاطئ؟ أم في القائمين عليه؟ أم في أي ركن من أركان عملية الاتصال الدعوي المعقدة والمتشابكة: زمكانيا وكيانيا وإمكانيا ولغويا ونفسيا وشعوريا ووجدانيا؟

فالمقصد، ومن معه من العلوم كفقه الواقع وفقه محل الانتقاء والتنزيل السوي، هو: المِحْرار الضابط لمسيرة التدين الصحيح والسليم والفعال في الإنسان والجماعة؛ لأن كل فكرة قد تحمل طاقة دفع إيجابية أو سلبية، فما بالك إن كانت الفكرة هنا عبادة وقفية مقدسة من عند الله، فهي تصنع الكثير والكثير، بل ترسم مسار أمة بأكملها، إما رشدا ورفعة، وإما ذلاً ومهانة.

وفوق ذلك كله، كون الدين الصحيح والسوي طاقة روحية ووجدانية وعقلية وسلوكية خلاقة وفعالة للارتقاء بالفرد والجماعة في مدارج السالكين ومعارج الواصلين إلى رضوان الله في العاجل والآجل، وذلك كله منوط بمدى قدرة الخطاب الدعوي السوي والصحيح وصناعته لعلاقة وطيدة مع ربه وتشريعاته وعباده المتلقين، فإن أسسها القائم بالاتصال الدعوي وتلقاها على صراط مستقيم حسنت دنياه وآخرته، وإن تلقاها ممن لم ولا ولن يعيها بأبعادها كانت عليه وعلى جماعته وبالاً وتخلفاً، كحالنا نحن اليوم، الذين لم نصنع شيئا بالإسلام وبكثرة الدعاة والقائمين بعملية الاتصال الدعوي.

ومن هنا ننطلق لتبيين دور ومكانة وأهمية وأثر علم فقه الواقع ولداته كقيمة مركزية دعوية في هذا الدين وأثرها الفعال في نجاح العمل الدعوي.. ففقه المقصد ولداته الأخرى تنتقل بالعبادة من كونها تصرفات وحركات وتمتمات وأقوال وكيفيات مخصوصة مبهمة عند الكثيرين، إلى كونها مفاهيم وقيم روحية ووجدانية وعقلية واعية كفيلة -إن استوعبت- أن تنهض بالفرد والجماعة والأمة نحو الخط المرسوم لها من لدن خالقها ورازقها، إن وعتْ سننه ونواميسه الكونية الضابطة.

المطلب الثاني

فقه الواقع قيمة دعوية مركزية دينية

عندما يكون الداعية والفقيه جزءاً حقيقيا وعمليا من الواقع وحياة الناس، فإن عمله الدعوي يتأسس وينطلق من فقهه لواقعه، وبالتالي سيتأسس خطابه الدعوي على مدى تغلغله في أعماق واقعه.. وبمقدار مشاركاته العملية في نسيج شبكة العلاقات الاجتماعية لمجتمعه يكون خطابه ناجحا ومؤثرا وفاعلا.

وهنا يستجمع في نفسه ملكة فهم الشريعة وأنه «..لا بد أن يكون مع الإنسان أصول كلية تُرد إليها الجزئيات ليتكلم بعلم وعدل، ثم يعرف الجزئيات كيف وقعت؟ وإلاّ فيبقى في كذب وجهل في الجزئيات، وجهل وظلم في الكليات، فيتولد فساد عظيم..»[1]؛ وملكة فهم الواقع وظروف وأحوال الناس، وملكة فقه التنزيل المعاصر؛ بالإضافة إلى «معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها، ومجاري أحوالها حالة التنزيل»[2].

---

(١) ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني، مجموع الفتاوي، طبعة الملك خالد، ١٤٠٧هـ/١٩٩٧م، ج١٩، ص٢٠٣.

(٢) الشاطبي، أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق أبو عبيدة آل سلمان، دار ابن عفان، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، ج٤، ص١٥٤.

ومن ثم، فهو يبني خطابه على منطوق مدى حاجة الناس للشرع، ومنطوق دور الشرع في إعادة إحياء الناس، ومنطوق ما حقه التقديم لإنشاء خطاب دعوي متين مؤسس لبناء الكيان الإسلامي.

وتأسيسا على هذا يقول الشاطبي: «.. فإن كل دليل شرعي مبني على مقدمتين، إحداهما: راجعة إلى تحقيق مناط الحكم، والأخرى: ترجع إلى نفس الحكم الشرعي»[1].

وكثيرا ما يُسأل الداعية أو الخطيب أو الفقيه في مسائل فقهية واضحة ولا يمكنه الإجابة عنها إجابة كافية شافية وافية مقنعة، أو أننا نتبين من إجابته بأنه لا يُحسن الإجابة لكونه بعيدا كل البعد عن واقعه وناسه وأهله ومجتمعه، وهذا عيب قادح في شخصية الداعية من جهة، وأحد مهلكات العمل الدعوي، لانفصامه عن الواقع، الذي هو بيت المقاصد ومحل التنزيل.

– أولاً: أجوبة متعددة لسؤال واحد:

ومن خلال تتبع سيرة وسنة رسول الله ﷺ نتبين أنه كان جزءاً مهماً وأساسيا من مجتمعه، ولم ينفصل عنهم لحظة واحدة، وهذا هو عين فقه الواقع، وقد وصفه الله تعالى في محكم تنزيله بمزية انتمائه الاجتماعي فذكره في أربعة مواضع قرآنية مدنية، مثبتا أهمية الانتساب والانتماء الاجتماعي والثقافي

(١) الشاطبي، أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة، المرجع السابق، ج٣، ص٢٣١.

واللغوي والجسدي والديمغرافي للداعية في قومه وأهله، فقال، وهو يصف دعوة إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، ضمن سلسلة الأدعية، التي جأر بها إلى ربه في سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (البقرة:١٢٦-١٢٩)،

وفي قوله تعالى وهو يقيم الحجة على المعاندين: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:١٥١)،

وفي قوله تعالى وهو يمنّ عليهم: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (آل عمران:١٦٤)،

وفي سورة الجمعة في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (الجمعة:٢).

وإذا تمعنت في الآيات الكريمات ستجد أن ركن انتماء الداعية لمجتمعه وواقعه أساسية ومهمة لنجاحه في أداء مهمته، فضلا عن كون الآيات نقلت لنا وعرفتنا بالوظائف، التي اضطلع بها نبينا الكريم محمد ﷺ وهي:

١- التلاوة: ﴿ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾، أي: يعرض عليهم تفاصيل مشروعه الإلهي.

٢- التعليم: ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾، أي: يقوم بدور المعلم لتعاليم الله وللسنة النبوية المطهرة.

٣- التزكية: ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾، أي: يقوم بتربيتهم وتأديبهم وتحليتهم بالأخلاق الفاضلة[١].

ولعلنا نقدم أمثلة عن فقهه، عليه الصلاة والسلام لواقعه، وكيفية تعامله مع السائلين، لنتعلم منه ﷺ.

فقد سُئل، عليه الصلاة والسلام، سؤالا واحدا وأجاب عنه إجابات مختلفة حددتها طبيعة ونوعية محل السؤال.. ولنتتبع هذه الأمثلة النبوية لنرى أهمية فقه الواقع في الدين الإسلامي كقيمة مركزية للدعوة إليه.

فقد سأل العباس رضي الله عنه رسول الله ﷺ فقال: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلِّمْنِي شَيْئًا أَدْعُو بِهِ.. فَقَالَ: «**سَلْ اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ**».. قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُهُ مَرَّةً أُخْرَى فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلِّمْنِي شَيْئًا أَدْعُو بِهِ.. قَالَ: فَقَالَ: «**يَا عَبَّاسُ، يَا عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَلْ اللَّهَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**»[٢].

---

(١) انظر: عيساوي، أحمد محمود، تيارات وقضايا فكرية معاصرة، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ص٧٢-٧٤.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، مسند بني هاشم.

وهو -كما ترى- فقد أعطاه جوابا مختصرا يصلح لحاله، لكونه يعرفه أشد المعرفة فهو عمه، وهو من كبار قريش وأغناهم، ولعلمه بسداد رأيه وسعة عقله، وإحسانه في قومه، ولمعرفته بسائر خصاله النبيلة، فقد كان يمقت الرق، وكان مولعا بعتق العبيد، وكانت له سقاية الحجيج وعمارة المسجد الحرام[1].

وجاءه ﷺ مرة أَعْرَابِيٌّ ، فَقَالَ: عَلِّمْنِي كَلَامًا أَقُولُهُ.. قَالَ: «**قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا، سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**»[2].

وهذا الصحابي الجليل سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه والخليفة الراشدي الأول يسأل رسول الله ﷺ عن دُعَاءٍ يَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِه، فقال له

---

(١) ولد العباس رضي الله عنه قبل الإسلام بـ ٥٦ سنة، وأسلم قبل الهجرة وكتم إسلامه، ثم هاجر إلى المدينة، وشهد فتح مكة، وغزوة حنين، وكان ممن ثبت مع رسول الله ﷺ وكان ينادي معه «**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ**»، أُصيب بالعمى في أخرياته.. له (٣٥) حديثا في كتب الحديث.. توفي بالمدينة المنورة يوم الجمعة في ١٤رجب سنة ٣٢هـ.. انظر: البلاذري، أحمد بن يحي بن جابر، جمل من أنساب الأشراف، تحقيق: سهيل زكار ورياض زركلي، مؤسسة الرسالة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ج١، ص٦٦؛ وابن إسحاق، أبو بكر محمد المدني، السيرة النبوية، المشهورة بسيرة ابن إسحاق، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، ص ٦٨؛ وغيره.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء.

رسول الله ﷺ : «**قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّك أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**»(١).

وهذا سُفْيَان بْن عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ رضي الله عنه (٢)، يسأل رسول الله ﷺ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ.. قَالَ: «**قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ فَاسْتَقِمْ**»(٣).. وهذه إجابة لم تزد عن أربع كلمات حتمها معرفته ﷺ بحقيقة السائل، وهو عين المقصد ومحل التنزيل.

وجاءه ﷺ صحابي يسأله مرة، فيما يُروى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: مُرْنِي بِأَمْرٍ.. قَالَ: «**لَا تَغْضَبْ**»، قَالَ: فَمَرَّ، أَوْ فَذَهَبَ، ثُمَّ رَجَعَ، قَالَ: مُرْنِي بِأَمْرٍ.. قَالَ: «**لَا تَغْضَبْ**».. قَالَ: فَرَدَّدَ مِرَارًا، كُلُّ ذَلِكَ يَرْجِعُ، فَيَقُولُ: «**لاَ تَغْضَبْ**»..

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كتاب الأذان.

(٢) هو سفيان بن عبد الله بن أبي ربيعة بن الحارث بن حطيط بن جشم الثقفي الطائفي، له صحبة ورواية، كان عاملا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه واستعمله عمر على صدقات الطائف، وقيل: إنه ولي الطائف، وكان ضمن الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ .. روى خمسة أحاديث.. انظر: ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم، أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار ابن حزم، دمشق، دون طبعة وتاريخ، ج٣، ص٢٦٤؛ وغيره.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام، حديث رقم ٣٨.

وفي رواية: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ، فَقَالَ: مُرْنِي بِأَمْرٍ وَلاَ تُكْثِرْ عَلَيَّ حَتَّى أَعْقِلَهُ، قَالَ: «**لاَ تَغْضَبْ**»، فَأَعَادَهُ عَلَيْهِ، قال: «**لاَ تَغْضَبْ**»[1].

وفي رواية: أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أَوْصِنِي، قَالَ: «**لاَ تَغْضَبْ**».. فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: «**لاَ تَغْضَبْ**»[2].. وفي رواية لابن حنبل: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْصِنِي.. قَالَ: «**لاَ تَغْضَبْ**».. قَالَ: قَالَ الرَّجُلُ: فَفَكَّرْتُ حِينَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَا قَالَ فَإِذَا الْغَضَبُ يَجْمَعُ الشَّرَّ كُلَّهُ[3].. وهنا لم تتعد الإجابة كلمة واحدة.

وذاك رجل آخر يسأله سؤالا ويرجوه أن تكون إجابته خفيفة وعبارته موجزة، لا بسط فيها ولا تفصيل، نظرا لحالته النفسية والعقلية الخاصة، فيجيبه رسول الله ﷺ قائلا، فيما يُروى عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ: «**امْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ**»[4].. وهنا تجاوزت الإجابة ثلاث جمل، ولكنها حملت قواعد اجتماعية ومعاني تربوية وقيمية كبيرة جدا.

وقد صدر هذا كله من رؤية شمولية للواقع ولمحل التنزيل وللمقصد المرغوب سلوكه.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل، مُسْنَدُ الْعَشَرَةِ الْمُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّةِ.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، أحاديث رجال من أصحاب النبي ﷺ.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ج ٤، ص ١٤٨، حديث رقم ١٧٤٦٧؛ والترمذي، حديث رقم ٢٤٠٦، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم ٨٨٨.

بينما جاء جوابه ﷺ مغايرا عند ارتفاع سقف الطالب، ورغبة السائل وشوقه الصحبة في الجنة، وهو مطلب ليس يسير السبيل، بل هو عسير البلوغ والمنال، إلاّ أنه ﷺ يسَّرَ له الطريق، وقاده نحو الصراط المستقيم المفضي للجنة.. فقد جاء عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ كَعْبٍ الْأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ، فَقَالَ لِي: «**سَلْ**».. فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ، قَالَ: «**أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ**»؟.. قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ، قَالَ: «**فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**»[1].

ومن خلال هذه الأجوبة المتعددة نتبين — من فعله وأجوبته ﷺ – أهمية معرفة حقيقة وعين محل التنزيل، من خلال فهم حاله وواقعه ونفسيته وظروفه المحيطة به، وبها نكون قد حققنا المقصد المرغوب لتلك الحالة دون غيرها.

– ثانياً: أجوبة متعددة لأسئلة حالٍ:

وهي العملية نفسها التي كان رسول الله ﷺ يكررها عندما يرى الحصيفين والنبهاء من الصحابة، رضوان الله عليهم، بالقرب منه، دون أن يضطرهم أو يحرجهم ليسألوه، فهو يعلمهم ويجيبهم بحدسه ومعرفته بما يجول في نفوسهم.. فقد جاء عن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، قال: لَمْ يَكُنْ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه، ج١، ص٣٥٣، حديث رقم ٤٨٩.

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَعُ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُمْسِي وَحِينَ يُصْبِحُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.. اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي.. اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَتِي (عَوْرَاتِي)، وَآمِنْ رَوْعَاتِي.. اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي**»[1].

وهو ذاته السلوك التربوي النفيس، الذي كان يمارسه رسول الله ﷺ سواءً سألوا أم لم يسألوا؟ استوصوا أم لم يستوصوا؟ حيث تبدو معالم علمي المقاصد وفقه الواقع ومحلِّ التنزيل..

فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**أُوصِيكُمْ بِأَصْحَابِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ.. ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ، حَتَّى يَحْلِفَ الرَّجُلُ وَلَا يُسْتَحْلَفُ، وَيَشْهَدَ الشَّاهِدُ وَلَا يُسْتَشْهَدُ.. أَلَا لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ.. عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ.. مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمْ الْجَمَاعَةَ.. مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ**»[2].

---

(١) أخرجه أبو داود، ح رقم ٥٠٧٤؛ وابن ماجه ٣٨٧١؛ والنسائي، وصححه الحاكم وابن حبان، ورواه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني، ح رقم ١٢٠٠/٩١٢.

(٢) أخرجه الترمذي في الجامع، كِتَاب الْفِتَنِ، بَاب مَا جَاءَ فِي لُزُومِ الْجَمَاعَةِ، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ؛ وأخرجه أحمد في مسنده؛ والحاكم في مستدركه، وصححه الألباني في (صحيح الجامع).

وبناءً على ما سبق نستنتج أهمية فقه واقع الناس ومعرفة أحوالهم ونفسياتهم ومشاعرهم وخواطرهم وظروفهم وبيئاتهم وثوابتهم ومتغيراتهم... في نجاح العمل الدعوي، وتسديد أهدافه، وتحقيق مقاصده المرغوبة فرديا واجتماعيا وكيانيا، ومن ثم نجاح الدين وانتشاره.. وهو ما يقودنا لتناول أهمية ودور علم المقاصد وفقه الواقع كقيمة مركزية لنجاح العمل الدعوي.

المبحث الثاني

علم المقاصد وفقه الواقع
قيمة دعوية مركزية لنجاح العمل الدعوي

لا يمكن للدعاة الإسلاميين المعاصرين أن يباشروا عملهم الدعوي بنجاح وأن يصلوا إلى درجة التوفيق في تعريف الناس بالإسلام الحقيقي كما نزل على رسول الله ﷺ إذا لم يعوا ويقتنعوا ويوقنوا بأهمية ودور ومكانة وأثر فقه وحِذْقِ علم المقاصد وفقه الواقع خلال ممارستهم سائر أنشطة العمل الدعوي من جهة، ودوره المتميز — إن أُحسِنَ فقهه واستثماره- في تبليغ وإنجاح العمل الدعوي وإيصال رسائله وتبليغها على أكمل وأحسن وجه إلى جمهور المدعوين العريض من جهة أخرى.

فالداعية المتفقهُ والمتقن لأبجديات هذين العلمين، فضلا عن آلية إحداثيات فقه التنزيل على المحل، نجده خلال مساره الدعوي يسير وفق خط الإسلام الرشيد في اختيار أفضل السبل والمناهج والفنيات لجذب جمهور المدعوين وتجميع رؤاهم وتصوراتهم وطاقاتهم نحو كلياته وأصوله الكبرى أولاً، كأصول العقائد والإيمان الست الكبرى، وفق الرؤية السوية والصحيحة والبسيطة والمباشرة، الخالية من شوائب العصور الكلامية الماضية، وكما كان

يعرضها نبي الإسلام محمد ﷺ صافية نقية، لا جدال فيها ولا حشو، حيث كان ﷺ يقدمها صافية سهلة من كتاب الله الكريم.

فقد «كان ﷺ لا يشق على أصحابه في أمر حتى في أوقات تعليمهم، فقد روى ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الْأَيَّامِ كَرَاهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا»[1]»[2].

والأمثلة في ذلك تترى من منهجه، عليه الصلاة والسلام، في هذا العرض المنسجم والسهل والواضح والهادف لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد وجور الأديان إلى سماحة وعدل الإسلام ويسره وسماحته، كعرضه الإسلام على زوجه خديجة، رضي الله عنها، وصديقه أبي بكر الصديق رضي الله عنه وربيبه زيد بن حارثة رضي الله عنه وبلال بن رباح رضي الله عنه وعليٍّ رضي الله عنه وعلى آل ياسر، رضي الله عنهم جميعاً.. وكما عرضه على عشيرته الأقربين[3].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، ج٤، ص٢١٧٢، حديث رقم (٢٨٢١).

(٢) انظر: بولحية، نور الدين، مناهج الفقهاء في التعامل مع النوازل الفقهية، سلسلة دعوة الحق، عدد ٢٦٣، السنة الثامنة والعشرون، ١٤٣٦هـ، ص١٣٢.

(٣) انظر: ابن هشام، أبو عبد الله عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، مرجع سابق؛ وابن كثير، عبد الله الدمشقي، السنة النبوية، مرجع سابق؛ القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، مرجع سابق؛ وغيرهم.

وكما عرضه أيضا على الْوَلِيد بْن الْمُغِيرَةِ المخزومي[1]، الذي كان سببا في نزول سورة «المدثر»، وعتبة بن ربيعة، حيث قرأ عليه صدرا من سورة «فصلت»، وكما عرضه على الأوس والخزرج، وعلى أحبار يهود، وعلى قسيسي نجران، وعلى ملوك وأمراء الأمم المجاورة.

وذلك من خلال المطلبين الآتيين:

١- المطلب الأول: علم المقاصد قيمة دعوية مركزية لنجاح العمل الدعوي.

٢- المطلب الثاني: علم فقه الواقع قيمة مركزية لنجاح العمل الدعوي.

---

(١) من أغنى أغنياء قريش.. وكانت قريش تسميه الوحيد أو وحيد مكة؛ لأن قبائل قريش تكسو الكعبة عاماً وهو وحده يكسوها عاماً.. أدرك الوليد بعثة الرسول ﷺ ولم يسلم، بل قال مستنكراً عدم نزول الدعوة عليه، وهو كبير قريش: «أَيُنَزَّلُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأُتْرَكُ وَأَنَا كَبِيرُ قُرَيْشٍ وَسَيِّدُهَا، وَيُتْرَكُ أَبُو مَسْعُودٍ عَمْرُو بْنُ عُمَيْرٍ الثَّقَفِيُّ سَيِّدُ ثَقِيفٍ، وَنَحْنُ عَظِيمَا الْقَرْيَتَيْنِ»؟! فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف:٣١)... مات بعد الهجرة بثلاثة أشهر عن خمس وتسعين سنة، ودفن في الحجون بمكة.. انظر السيرة النبوية لابن هشام،ج١،ص٣٦١، وغيرها من مصادر السنة والسيرة.

المطلب الأول

علم المقاصد
قيمة دعوية مركزية لنجاح العمل الدعوي

الأحكام الشرعية شطرها معلل، وشطرها الآخر غير قابل للتعليل، لكون الحاصل في العقل من سائر التصورات المادية الواقعة غير قادرة لتعليل الكثير من الأحكام الشرعية، فلا تُعرف علة عدد الركعات في الصلوات المفروضة والمسنونة مثلا، ونحوها، وثمة ما هو معلل وقابل للتحليل والتعليل والاستنباط لكون المخزون التصوري به نماذج يمكنه بواسطتها الوصول إلى بعض حكمها، وهو ما يقول به الكثير من الأصوليين كأبي حامد الغزالي في «المستصفى»، وغيره.. وفي هذا الصدد يقول الباحث عبد السلام خليل[1]:

«.. لقد تفطن الإمام الرازي رحمه الله في زمن مبكر إلى جوهر الداء، حيث اعتبر التشبيه هو السبب الرئيس للوثنية، إنها الجرثومة الأولى التي أدخلت

---

(١) الأستاذ عبد السلام خليل باحث جزائري متميز في حقل الدراسات الأصولية والفقهية والمقاصدية، من مواليد مدينة بسكرة سنة ١٩٦٨م، وله العديد من الكتابات منها: أبعاد المشروع الحضاري للشيخ محمد الغزالي، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ/٢٠١٧م، وخواطر في مقاصد الصيام، دار النعمان للطباعة والنشر، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م.

التناقضات على العقل حتى أفضت إلى تعطيله، ففساد عالم الأفكار كان بداية من التفسير الحسي للصفات الإلهية، الذي أفضى في نتائجه إلى التجسيم الذي عطّل مدارك العقل وأودى به إلى الجمود والتحجر، فأفرز بدوره جمودا وتحجرا في عالم العبادات، إنه الانعكاس الطبيعي لما يختلج في العقل من أفكار جامدة، فالعقائد والعبادات وجهان لعملة واحدة وتأثيرهما متبادل، فالعبادات هي الوجه العملي لكلمة التوحيد»[1].

فالحكمة المقاصدية أو الهدف أو الغاية المقاصدية..

فمن حِكمه المقاصدية ﷺ أنه كان يرى أفضلية المداومة على العمل القليل، فهو خير من العمل الكثير المنقطع، فقد روت السيدة عائشة، رضي الله عنها، أن النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ، قال: «**مَنْ هَذِهِ**»؟ قَالَتْ: فُلَانَةُ، تَذْكُرُ مِنْ صَلَاتِهَا، قَالَ: «**مَهْ، عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ، فَوَ اللَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا**»[2]، أي: «اشْتَغِلُوا مِنَ الْأَعْمَالِ بِمَا تَسْتَطِيعُونَ الْمُدَاوَمَةَ عَلَيْهِ، فَمَنْطُوقُهُ يَقْتَضِي الْأَمْرَ بِالِاقْتِصَارِ عَلَى مَا يُطَاقُ مِنَ الْعِبَادَةِ، وَمَفْهُومُهُ يَقْتَضِي النَّهْيَ عَنْ تَكَلُّفِ مَا لَا يُطَاقُ»[3].

---

(١) خليل عبد السلام، خواطر في مقاصد الصيام، المرجع السابق، ص٢٠.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله عز وجل وأدومه، ج١، ص٢٤، حديث رقم٤٣؛ ومسلم، كتاب الصلاة، باب أمر من نعس في صلاته، ج١، ص٥٤٢، حديث رقم ٧٨٥، وغيرهما.

(٣) العسقلاني شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج١، ص١٠١.

ومن حِكمه المقاصدية في الدعوة: عدم مداومته على العمل خشية اقتداء الناس به، فيفرض عليهم، فيشق عليهم، فيتركوه، فكان ﷺ يترك بعض المصالح خوف الوقوع في المفسدة، وتقديم أهم المصلحتين، فعن السيدة عائشة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «إِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيَدَعُ الْعَمَلَ وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ..»[1]، ونهيه ﷺ عن مواصلة الصيام في النهار والقيام في الليل تطوعا، ومخالفة سنته والتنطع والتشدد والغلو، وهو الذي سار عليه صحابته الكرام من بعده.

فكان عرضه ﷺ بمثابة القدوة الناصعة والخط المبين، الذي يوجه الدعاة للإسلام في كل حين، تُراعى فيه المقاصد الشرعية الكبرى وموقعها من واقع وحياة المكلفين.

كان رسول الله ﷺ «حكيما في تربية أصحابه، فسار بهم وفق منهج القرآن الحكيم، وتدرج معهم في الإصلاح والتغيير دون عنت ولا إكراه، فلم يكلفهم ما لا يطيقون، ولم يُشرع لهم إلاّ ما يجلب لأنفسهم نفعا أو يدفع عنهم فسادا وضررا.. وظهر هذا المنهج الحكيم من خلال أقواله وأفعاله، فكان ينهى عن التشدد والتنطع في العبادة، ويرى أن ذلك مناف

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب تحريض النبي على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب، ج١، ص٣٧٩، حديث رقم١٠٧٦؛ ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب الضحى، ج٢، ص٢٨، حديث رقم١٢٩٣.

لحكمتها والمقصد منها، قال ﷺ: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ**..»[1].. والحكمة من النهي عن التشدد في العبادة ظاهرة في الحديث، وهو خوف الانقطاع عن العبادة والنفور منها»[2].

وكما اختلفت إجاباته ﷺ لمدعويه، كما تبينا آنفا، نجده ﷺ قد اختلفت وصاياه حيالهم أيضا، وذلك لمراعاته ﷺ لحالهم وظرفهم من جهة، وللمقصد الشرعي المرغوب منهم سلوكه واتباعه من جهة أخرى، فذاك قال له: «**لَا تَغْضَبْ**» [3]، وهذا قال له: «**لاَ تَسُبَّنَّ شَيْئاً**».

فعن الْحَكَم بْن فُضَيْلٍ، عَنْ خَالِدٍ الْحَذَّاءِ، عَنْ أَبِي تَمِيمَةَ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ قَوْمِهِ قَالَ: شَهِدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَتَاهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ؟ أَوْ قَالَ: أَنْتَ مُحَمَّدٌ؟ فَقَالَ: «**نَعَمْ**» قَالَ: فَإِلاَمَ تَدْعُو؟ قَالَ: «**أَدْعُو إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ، مَنْ إِذَا كَانَ بِكَ ضُرٌّ فَدَعَوْتَهُ كَشَفَهُ عَنْكَ، وَمَنْ إِذَا أَصَابَكَ عَامُ سَنَةٍ فَدَعَوْتَهُ أَنْبَتَ لَكَ، وَمَنْ إِذَا كُنْتَ فِي أَرْضٍ قَفْرٍ، فَأَضْلَلْتَ**

---

(١) أخرجه البخاري، عن أبي هريرة، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، ج١، ص٢٣، حديث رقم٣٩؛ والنسائي، كتاب الإيمان وشرائعه، باب الدين يسر، ج٨، ص١٢٢، حديث رقم ٥٠٣٤؛ وابن حبان، عن أبي هريرة، كتاب البر والإحسان، باب ذكر الأمر بالغدو والرواح والدلجة في الطاعات، ج٢، ص٦، حديث رقم٣٥١؛ والبيهقي في سننه، كتاب الطهارة، باب القصد في العبادة والجهد في المداومة، ج٣، ص١٨، حديث رقم ٤٥١٨.

(٢) حامدي، عبد الكريم، المدخل إلى مقاصد القرآن، ص٨٠.

(٣) سبق تخريج الحديث.

فَدَعَوْتَهُ رَدَّ عَلَيْكَ». قَالَ: فَأَسْلَمَ الرَّجُلُ، ثُمَّ قَالَ: أَوْصِنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ لَهُ: «**لاَ تَسُبَّنَّ شَيْئاً**» - أَوْ قَالَ: «**أَحَداً**»، شَكَّ الْحَكَمُ- قَالَ: فَما سَبَبْتُ شَيْئاً، بَعِيراً وَلاَ شَاةً مُنْذُ أَوْصَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .. «**وَلاَ تَزْهَدْ فِي الْمَعْرُوفِ وَلَوْ بِبَسْطِ وَجْهِكَ إِلَى أَخِيكَ وَأَنْتَ تُكَلِّمُهُ، وَأَفْرِغْ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَسْقِي، وَائْتَزِرْ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ، فَإِنْ أَبَيْتَ فَإِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الإِزَارِ، فَإِنَّهَا مِنَ الْمَخِيلَةِ، وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمَخِيلَةَ**»[1].

ومن هذا الحديث نرى أن تسديد النبي ﷺ هذا الصحابي السائل المقصد المرغوب منه، بفضل حكمته المقاصدية، وواقعيته في فهم المحل، وفي التعرف على أحوال السائلين، وفي ضمهم للصف الإسلامي دونما كثير عناء أو جهد أو كلام.

وفي هذا السياق يقرر عمر عبيد حسنه أن: «.. من سمات منهج النبوة في الدعوة والإصلاح: فقه الواقع، الذي عليه الناس، والتحقق بالرؤية الشاملة للظروف والملابسات، وإبصار التداعيات المستقبلية لكل فعل وحركة، وتقدير

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، كتاب اللباس، باب ما جاء في إسبال الإزار، حديث رقم ١٦٣٢٢، وحديث رقم٣٥٨٠؛ والنسائي، كتاب الزينة، حديث رقم٩٣٧١؛ والبيهقي، السنن الكبرى، كتاب الشهادات، باب شهادة أهل العصبية، حديث رقم١٩٦٢٢، بسند صحيح.

الاستطاعة، مناط التكليف، قبل تقرير الأحكام وممارسة الأفعال.. ولعل في أسباب نزول الآيات، التي تشكل دليل عمل لتنزيل آيات القرآن وفق ظروف الناس، وتقديم الحلول لمشكلاتهم، مؤشر واضح على أهمية فقه الواقع، بكل ظروفه وملابساته، قبل تنزيل قيم الوحي عليه.. وهذا منهج النبوة وعطاؤها»[1].

وعليه، فالداعية والدعوة الإسلامية بحاجة أكيدة لتقصي مقاصد القرآن وحكمه الغزيرة، ومن دونهما لا يمكن جذب وإقناع جمهور المدعوين نحو سماحة ويسر وحنيفية الإسلام.. فتعلم مقاصد القرآن وحكمه – بالإضافة إلى لداته من العلوم– من أوكد العلوم التفصيلية في نجاح الدعوة والعمل الدعوي أسوة برسول الله ﷺ[2].

(١) من مقدمة عمر عبيد حسنه، لكتاب «رؤى الإصلاح عند الإمام محمد الخضر حسين»، المرسي محمود شولح، كتاب الأمة، قطر، عدد ١٥٩، المحرم ١٤٣٥هـ، ص٣٦.

(٢) انظر: حامدي، عبد الكريم، المدخل إلى مقاصد القرآن، مرجع سابق، ص٧٦.

المطلب الثاني
علم فقه الواقع والمَحِلِّ
قيمة مركزية لنجاح العمل الدعوي

يُعد علم فقه الواقع وعلم محل التنزيل أحد العلوم الرئيسة، التي يجب على الداعية امتلاكها، بَلْهَ التمكن والتحكم فيها، نظرا لما لها من خصوصيات تُكسب العمل الدعوي الأصالة والتسديد والنجاح، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ الكثير من المواقف الدالة على أهمية اكتساب هذا العلم، والتمهر فيه بحِذْقٍ.

فقد كان الكثير من الصحابة، رضي الله عنهم، يطلبون منه أن يوصيهم حال تأميره إياهم، أو حال سفرهم، أو حال إقدامهم على تأدية مهمة، أو حال شعورهم بحالات من الشوق والوجد والوَلَهِ لكسب رضوان الله سبحانه وتعالى، أو في حالات وترات النفس السوية.. وكان ﷺ يجيب كلاً وفق مكوناته وحاله وظرفه، ولعلنا نقدم نتفا من منهجه ﷺ في حِذْقِ فقه الواقع ومحل التنزيل نبين من خلالها أهمية هذا العلم والباب من الدعوة.

– أولاً: سؤال واحد وأجوبة متعددة.. «أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ»؟:

١– سؤال أحد الصحابة رضي الله عنه:

سأل أحد الصحابة، رضي الله عنهم، يوما النبي ﷺ عن أفضل الأعمال، وكان الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه حاضرا فحفظ ونقل لنا إجابته، عليه

الصلاة والسلام، قائلا: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**إِيمَانٌ بِاللَّهِ**».. قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «**الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**».. قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «**حَجٌّ مَبْرُورٌ**».. وَفِي رِوَايَةٍ: «**إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ**»[1].

٢- سؤال أبي ذر الغفاري رضي الله عنه:

وعن أبي ذر رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ**»، قَالَ: قُلْتُ: أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا**».. قَالَ: قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ؟ قَالَ: «**تُعِينُ صَانِعًا أَوْ تَصْنَعُ لِأَخْرَقَ**».. قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ الْعَمَلِ؟ قَالَ: «**تَكُفُّ شَرَّكَ عَنْ النَّاسِ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ**»[2].

٣- سؤال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: «سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: «**الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا**».. قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ**» قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**» قَالَ: حَدَّثَنِي بِهِنَّ، وَلَوْ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي[3].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال.

(٣) أخرجه مسلم، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها.

وكانت إجابته ﷺ في الحديث الأول للصحابي السائل رضي الله عنه مرتبطة بحاله وقوته، فهو من أهل الصفة، وفقرائها، ومن الغرباء عن المدينة، ولذلك أظهر له ترجمة مختلفة للإيمان ترجمت إلى قضايا اجتماعية لها صلة وثيقة بشكله ووضعه.

بينما كانت إجابته ﷺ في الحديث الثاني مشابهة للأولى، في مسائل الإيمان والتوحيد والجهاد، معرجا على أعماق ومكنونات نفسية السائل حين عرّفه بأن قيمة كل نفس بمقدار قربها من رضى الله سبحانه وتعالى، فضلا عن تركيزه ﷺ على قضايا التعاون الاجتماعي المشترك، منتقلا ومتدرجا من التعاون الإيجابي إلى درجة الانكفاف السلبي، الذي هو شكل من أشكال التواصل الاجتماعي البناء، وذلك بكف الشر عنهم.

فيما تنوعت أجابته ﷺ في الحديث الثالث بالتأكيد والتركيز والترتيب على أهمية فريضة الصلاة، ثم برِّ الوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله.

والمتمعن في هذه الأجوبة الثلاثة على السؤال نفسه يتبين تنوع إجابة النبي ﷺ باعتبار المحل، وباعتبار ظروف ونفسية ووضعية السائل.. ولعل أهم ما يستنتج منها الآتي:

١- تضمنت الإجابة الموضوعات والأحكام نفسها على وجه التقريب: (الإيمان، الصلاة، الجهاد).

٢- جاء ترتيب الإيمان بالله على رأس الحديثين الأول والثاني، والصلاة في وقتها في الحديث الثالث، لكونها الوجه العملي للإيمان بالله والتوحيد.

٣- تكرر في الحديث الأول الإيمان بالله ورسوله ﷺ مرتين في بداية الحديث ونهايته.

٤ - وتكرر الجهاد بصيغتين، الجهاد بمعنى القتال، والحج الذي هو جهاد النساء من أمة الإسلام.

وترجم في الحديث الثاني رضوان الله تعالى بالقضايا الاجتماعية المختلفة.

٥- ترتيب التفاعل السلبي ككف الشر في آخر سلم الأولويات الشرعية والمعاملاتية للسائل.

- ثانياً: وصايا وأسئلة واستفسارات مختلفة لمستوصين كثر:

كثر جمهور الصحابة المستوصين رسولَ الله ﷺ.. فقد ورد في السنة المطهرة الكثير من الأسئلة، التي جاءت من قبل الكثير من الصحابة، رضوان الله عليهم أجمعين، بصيغة الوصاية، فيقول السائل: يارسول الله، (أوصني)، وتباينت وصية الرسول ﷺ تبعا لحقيقة وظروف ونفسية السائل، ولعلنا نسوق أمثلة لتبيين أثر وأهمية التحكم في علم فقه الواقع وتحديد وضبط محل التنزيل في تحديد نوعية وصياغة الإجابة.

١- يَا رَسُولَ اللَّهِ.. أَوْصِنِي:

جاء الصحابي حَرْمَلَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التميمي العنبري رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ في ركب من قومه، ولما أزمع القفول مع قومه قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْصِنِي.. قَالَ:

«**اتَّــقِ اللَّهَ.. وَإِذَا كُنْــتَ فِي مَجْلِسٍ فَقُمْتَ مِنْهُمْ وَسَــمِعْتَهُمْ يَقُـــولُونَ مَا يُعْجِبُكَ فَأْتِهِ، فَإِذَا سَمِعْتَهُمْ يَقُولُونَ مَا تَكْرَهُ فَلا تَأْتِهِ**» (١).

والمتمعن في هذا الحديث يجد أن النبي ﷺ يركز في موعظته وتوجيهه على ركن التقوى، ثم يتجه إلى تبيين خيار المجالس من سيئها، ووجوب إتيان مجالس الخير، وتجنب مجلس السوء، لعلمه بنفسية السائل من جهة، ولعلمه بنوعية قومه ومجتمعه، الذين تكثر فيهم مجالس السوء من جهة أخرى.

٢- أَوْصِنِي:

عن أُمَيْمَةَ، رضي الله عنها، مَوْلَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قالت: كُنْتُ أَصُبُّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وُضُوءَهُ، فَدَخَلَ رَجُلٌ فَقَالَ: أَوْصِنِي.. فَقَال: «**لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ شَيْئًا وَإِنْ قُطِّعْتَ وَحُرِّقْتَ بِالنَّارِ، وَلَا تَعْصِ وَالِدَيْكَ وَإِنْ أَمَرَاكَ أَنْ تُخَلَّى مِنْ أَهْلِكَ وَدُنْيَاكَ فَتَخَلَّ، وَلَا تَشْرَبَنَّ خَمْرًا فَإِنَّهَا مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ، وَلَا تَتْرُكَنَّ صَلَاةً مُتَعَمِّدًا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ**»(٢).

والمتدبر في هذا الحديث يجد أن النبي ﷺ يتجه نحو هذا الصحابي المستوصي، فيركز ﷺ على قيمة التوحيد، وعلى طاعة الوالدين، واحترام أداء الصلاة في وقتها، وتجنب الخمر لكونها مفتاح كل شر.

---

(١) أخرجه أبو داود؛ مسند الإمام أبو داود، تحقيق: محمد بن عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ج٢، ص٥٣٢.

(٢) أخرجه الطبراني، المعجم الكبير، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب».

٣- مَنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ؟

عن عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، قال: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ؟ قال: «**الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللَّهُ**»(١).

في هذا الحديث ربط النبي ﷺ مفهوم الولاية والمكانة الاجتماعية في المجتمع بنوعية فاضلة ومتميزة من الناس، يُستدعى الله وعظمته عند رؤيتهم. وهنا نتبين كيف تحولت القيم الإيمانية السامية في أقوال وسلوكات وأفعال نوعية مخصوصة من الناس، وهذا لطبيعة ونوعية محل وواقع السؤال.

٤- مَتَى السَّاعَةُ؟

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ السَّاعَةِ، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «**وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا**»؟ قَالَ: لَا شَيْءَ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ، فَقَالَ: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**».. قَالَ أَنَسٌ: فَمَا فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحَنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**».. قَالَ أَنَسٌ: «فَأَنَا أُحِبُّ النَّبِيَّ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ، وَإِنْ لَمْ أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ»(٢).

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب التفسير، تفسير سورة يونس، وهو حديث حسن.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب مناقب عمر بن الخطاب، حديث رقم ٣٦٨٨، واللفظ له؛ ومسلم، كتاب البر والصلة، باب المرء مع من أحب، حديث رقم ٢٦٣٩.

وفي الحديث الغيبي الدقيق والعصي عن الجواب، نظرا لحدود وقصور وتوقيفية المعارف النبوية فيه، ولاختصاصها وحصرها في إطار المعارف الإلهية فقط: «**مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ**»[1]، اتجه البيان النبوي الشريف نحو تفسير السر الملكوتي إلى عملية تحضير وإعداد شيئية وروحية وتعبدية من جهة، وإلى دخائل وأشواق وجدانية وشعورية وانفعالية من جهة ثانية، تمثلت في التركيز على عاطفة الحب الغامرة، المفضية بنجاة السائل والسامع والعامل والمقتفي الأثر الصادق في مشاعره بالمكانة المرجوة، وهنا تحددتْ الإجابة بناء على دخائل ومخارج نفسية وشخصية السائل.

٥- «**سَلْ حَاجَتَكَ**»:

وفي مواضع أخرى يتجه النبي ﷺ لأصحابه طالبا منهم السؤال، بعد أن يتصفح قسمات وجوههم، ويعرف حاجتهم، أو رغبتهم في طلب حاجة، فيعفيهم من ذل السؤال وعنت الإحراج، فيقول لهم: «**سَلُوا**»، أو «**سَلْ حَاجَتَكَ**»، فيتشجعون ويسألون حاجتهم، ويجدون جوابها بين ثنايا رحمته ﷺ فيعطي كل سائل حاجته، ويخط له طريقها الصحيح، ويُلزمه بأداء حقها ليناالها..

فهذا الصحابي الجليل رَبِيعَة بْن كَعْبٍ الْأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه يقول: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ، فَقَالَ لِي: «**سَلْ**».. فَقُلْتُ:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدرة الله، ج١، ص٣٦، حديث رقم ٨.

أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ، قَالَ: «**أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ**»؟.. قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ، قَالَ: «**فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**»[1].

٦- تعليم وقائي:

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «**أَيُّ عُرَى الْإِسْلَامِ أَوْثَقُ**»؟ قَالُوا: الصَّلَاةُ.. قَالَ: «**حَسَنَةٌ، وَمَا هِيَ بِهَا**».. قَالُوا: الزَّكَاةُ.. قَالَ: «**حَسَنَةٌ، وَمَا هِيَ بِهَا**».. قَالُوا: صِيَامُ رَمَضَانَ.. قَالَ: «**حَسَنٌ، وَمَا هُوَ بِهِ**».. قَالُوا: الْحَجُّ.. قَالَ: «**حَسَنٌ، وَمَا هُوَ بِهِ**».. قَالُوا: الْجِهَادُ.. قَالَ: «**حَسَنٌ، وَمَا هُوَ بِهِ**».. قَالَ: «**إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي اللَّهِ، وَتُبْغِضَ فِي اللَّهِ**»[2].

في هذا الحديث نجد النبي ﷺ يعكس المنهج ويتجه لتناول طرح السؤال عوض انتظاره من الصحابة، رضوان الله عليهم، نظرا لإحاطته بظروف وحيثيات المجلس، وخشية تسرب الملل إلى نفوس الصحابة من الصمت، ورغبة من النبي ﷺ ولعلمه بحالهم وواقعهم الانفعالي والشعوري، ولدرايته ﷺ بالجو النفسي والمعنوي المخيم على الحلقة والمتحلقين والجالسين، فيتحرك ويبادر بالسؤال، ثم يتركهم يخمنون ويجيبون، ليعلمهم طريقة السؤال والجواب

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه، ج١، ص٣٥٣، حديث رقم ٤٨٩.

(٢) أخرجه أحمد، أول مسند الكوفيين، حديث رقم ١٨٥٢٤، وهو حديث حسن بشواهده.

من جهة، وليحثهم على التفكير الإيجابي أيضا من جهة ثانية، وليبين لهم ترتيب وأهمية الفرائض والواجبات من جهة ثالثة.

وعلى الرغم من أهمية ومكانة تلك الفرائض في الإسلام، إلاّ أنه ﷺ بيّن لهم بردوده نحوها بأنها ذات قيمة «**حَسَنَةٌ، وَمَا هِيَ بِهَا**»، ولكنها ليست هي المعنية بالسؤال الاستراتيجي، لينطلق بعد طول نفس وصبر على مجموع التدخلات والإجابات ليبيّن لهم، أن: القيمة الأعلى والأكبر والأخطر والأدق في منظومة القيم والشرائع التعبدية الإسلامية هي تحديد مسألة الانتماء والولاء وتحديد المواقع، وضبط مواطن التخندق في الصفوف، وهي مرتبطة تمام الارتباط بمقدار الولاء والقرب من الله تعالى، وهنا يتحدد ويتجلى المعنى الحقيقي للإيمان والتوحيد الخالص.

فماذا تنفع الصلاة والصيام والزكاة والحج كفرائض تعبدية رئيسة تشكل قوام الإسلام، وماذا يُجدي الجهاد في سبيل الله، على قدره وعظمته في حفظ البيضة والذب عن الحرمة والمقدسات، إذا كانت المعايير والضوابط الانتمائية هيولية ومائعة وغير منضبطة؟ ذلك أن مسألة تحديد معايير الانضمام إلى معسكر والانتماء إليه هي التي تحدد مصير ومسار ومقاصد ومنافع تلك الفرائض والعبادات، بل ومصير الإنسان الآجل والعاجل كله، وإلاّ آل حالهم إلى ما تردى إليه حال بني إسرائيل حينما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ

مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (المائدة:٧٨-٧٩)، وفيهم قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللَّهَ، وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنْ الْغَدِ فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ[1]»[2].

وجماع أقوال الشراح والمفسرين والدارسين من سلف وخلف الأمة ينصب على أن رسول الله ﷺ قد راعى حال وواقع وظرف ونفسية وشخصية وطبيعة كل سائل، وأجاب الإجابة التي تصلح له، فضلا عن خَلْقِ[3] وإيجاد الرغبة لدى السائل أو السامع والمستمع أو المقتفي الخطى للترغيب في إتيان ذلك الأمر أو الانتهاء عنه، فما يكون عملا فاضلا عند هذا قد يكون مفضولا عند الآخر، وما يكون حقه الصدارة عند هذا، يكون تأخيره عند ذاك، وهكذا

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، ج٦، ص٣٩١، حديث رقم ٤٣٣٦، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، حديث رقم ١١٠٥.

(٢) يذكر المفسرون أن الرجل من بني إسرائيل كان يرى الرجل يرتكب المناكر والمفاسد فينهاه، ثم يأتيه في اليوم الموالي ويسلم عليه ويعتنقه ويبيع منه ويشتري ويناديه بلقب السيد ويكون أكيله وشريبه.. انظر: الزموري البرجي، محمد بن عبد الكريم الجزائري، توجيهات القرآن العظيم، دار المعالي للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، ج٤، ص٣٠- ٣٢.

(٣) طبعا ليس الخلق والإنشاء والإبداع الإلهي، بل هو: إثارة الحس وتحريك دخائل النفس للإقبال على المطلوب دعويا.

يوفق الله كلا لترتيب الأعمال وفق مشروع وبرنامج إرادي واعٍ من المكلف، تحدده قدرته واستطاعته ونفسه وظرفه وحاله ورغبته وشوقه.. فمنهم من يرى إصلاح دخيلته أولى لحاجته لذلك، ومنهم من يرى إصلاح ظاهره بكثرة العبادة لصلاح سريرته، ومنهم من يرى الجهاد أفضل له، ومنهم من يرى الذكر أصوب لروحه ونفسه، ومنهم...

وجماع ذلك كله وسره وجوهره يكمن في أثر تلك العبادات والفرائض والواجبات والوصايا في تشكيلها خطة عمل مدروسة للرقي بالنفس الإنسانية للكمال البشري، ونيل رضى ربها وخالقها، وإلاّ صارت العبادات أشبه بطقوس شكلية كالتي يؤديها السدنة والكهنة والعبّاد في المعابد وهم يقدمون قرابينهم للآلهة، فمن لمن تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له، أنه لا أثر لها في حياته الفردية والجمعية، ومن لم ينهه ويهذبه صيامه عن الفحشاء والمنكر، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه، ومن لم يؤدبه حجه ويرجع كيوم ولدته أمه، فليس له سوى السفر والتعب.

ومن هنا يجب على الدعاة والقائمين بعملية الاتصال الدعوي ترقب هذه المعالم أثناء إعداد وتنفيذ خطابهم الدعوي في جمهور المدعوين.

ومن هنا ننطلق لتبيين دور علم المقاصد وفقه الواقع ومحل التنزيل لنجاح الداعية عبر المبحث الثالث.

المبحث الثالث

علم المقاصد وفقه الواقع والمحل
قيمة مركزية لنجاح الداعية

يجدر بنا ونحن نتناول المبحث الثالث أن نبين ونرسم الحدود الدنيا المطلوبة لثقافة وزاد ومعارف الداعية الضرورية والأساسية؛ لأننا من خلالها يمكننا التحقق من أهمية ومكانة علم المقاصد وفقه الواقع ومحطات إحداثيات تنزيل النص على المحل المعني والمستقبل، لنستيقن من أن التمكن من هذه المعارف والعلوم هو السبيل الوحيد –بالإضافة إلى سائر العلوم والأركان– لنجاح الداعية في عمله الدعوي.

والمطلع على رفوف المكتبة الإسلامية يكتشف الكثير من أعلام الفقه والدعوة الإسلامية ممن كتب في ثقافة وزاد وعدة الداعية، فقد ألف في هذا الفن الجليل الكثير من الفقهاء والدعاة القدامى في باب درجات وطبقات المجتهدين، كـ «عمدة السالك وعدة الناسك» لـ «ابن النقيب الشافعي»[1]، وسائر المصنفين في علوم الأصول والفقه والحديث والتاريخ والرجال.. ثم الذين

---

(١) ابن النقيب الشافعي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن النقيب (ت ٧٦٩)، عمدة السالك وعدة الناسك، تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، طبعة الشؤون الدينية، دولة قطر، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م.

يلونهم من كل عصر ومصر، وصولا لعصر النهضة الإسلامية في القرن الثالث عشر الهجري كالشيخ المصلح «محمد بن علي السنوسي الكبير»، وحكيم الشرق الشيخ «جمال الدين الأفغاني»، وتلامذته الكثيرين كـ «عبد القادر المغربي»، ولاسيما تلميذه الشيخ المصلح «محمد عبدة المصري»، وتلامذته كالشيخ «مصطفى صبري»، وغيرهم.

ومن المُحْدثين من أمثال الشيخ: «محمد الخضر حسين» وكتابه القيم «الدعوة إلى الإصلاح» [1]، و«محمد إقبال»، و«أبو الأعلى المودودي» وسلسلة كتبه الدعوية والفكرية والحضارية والحركية القيمة، و«محمد الغزالي» وسلسلة كتبه الدعوية والتنويرية والفكرية القيمة جدا، و«أحمد ديدات» وكتبه المتميزة في مقارعة التبشير والمبشرين، و«عبد السلام ياسين» وسلسلة كتبه المتنوعة، و«فتحي يكن»، وسلسلة كتيباته الدعوية، و«سعيد رمضان البوطي» وسلسلة كتبه الدعوية، و«سميح عاطف الزين» وكتابه القيم «صفات الداعية»، و«جمعة أمين» وكتابه «الدعوة قواعد وأصول»، و«طه جابر العلواني» وكتابه «أدب الاختلاف في الإسلام»، و«عبد الكريم زيدان» وكتابه الشهير «أصول الدعوة»، و«محمد أبو الفتح البيانوني» وكتابه القيم «القواعد الشرعية ودورها في ترشيد العمل الدعوي»، و«عبد الرحمن حسن حبنكة»، و«همام سعيد» وكتبه الدعوية، و«عمر عبيد حسنه» وكتبه

(١) المطبعة التعاونية، دمشق، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ/١٩٧٤م.

الدعوية ومقدماته القيمة والرائعة لـ «كتاب الأمة»، و«محمد سيد محمد» وكتابه القيم «المسؤولية الإعلامية في الإسلام»[1]، و«عبد الله الزبير عبد عبد الرحمن» وكتابه «من مرتكزات الخطاب الدعوي في التبليغ والتطبيق» و«دعوة الجماهير: مكونات الخطاب ووسائل التسديد»، و«معتصم بابكر مصطفى» وكتابه «من أساليب الإقناع في القرآن الكريم»، وغيرها مما امتلأت به هوامش الدراسة[2].

فما هي أدوات الداعية الناجح؟

من هنا ننطلق لتبيين دور علم المقاصد وفقه الواقع ومحل التنزيل لنجاح الداعية عبر المبحث الثالث، الذي يتضمن المطالب الآتية:

١- المطلب الأول: أدوات وثقافة وعدة الداعية الناجح.

٢- المطلب الثاني: علم المقاصد وفقه الواقع والمحل قيمة مركزية لنجاح الداعية.

---

(١) محمد سيد محمد، المسؤولية الإعلامية في الإسلام، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

(٢) تكفلت سلسلة «كتاب الأمة» القطرية بطباعة وإخراج الكثير من الكتب الدعوية في سلسلتها العلمية الرائدة.

المطلب الأول

أدوات وثقافة وعدة الداعية الناجح

لا يمكن للداعية الناجح أن يحقق ما يصبو إليه في دعوته خلال إعداده لمشروعه الدعوي، إلا إذا توفرت فيه جملة من المقومات والصفات الفطرية والمكتسبة، وامتلك زمام السيطرة على أطره المرجعية المقدسة وفقه معطيات عصره وواقعه جملة وتفصيلا، وتحلى بأخلاق الإسلام خلال ممارساته الدعوية والحياتية كلها، وحاز على زاد علمي ومعرفي ومنهجي، وبذلك يضمن النجاح لدعوته.. وهاته الأدوات الرئيسة[1]:

– أولاً: فقه الأطر المرجعية بكافة بواباتها ومداخلها العلمية والمعرفية والمنهجية، وهي:

١ – القرآن الكريم، عبر تفاسيره: (المأثور، المعقول، الفقهي، اللغوي، الإعجاز البياني والعلمي، الفكري، السياسي، الحركي..) وعلومه وأحكامه كبوابات لعبور مغاليق النص الكريم المقدس واستسبار أحكامه المقدسة.

---

(١) انظر: القرضاوي، يوسف، ثقافة الداعية، دار الشهاب، باتنة الجزائر، دون طبعة وتاريخ، ص٩١– ١٤٤؛ وسميح عاطف الزين، صفات الداعية، دار الكتب العلمية، بيروت، دون طبعة وتاريخ، ص ١٦٧ – ١٩٧؛ وجمعة أمين، الدعوة قواعد وأصول، دار الشهاب، باتنة الجزائر، دون طبعة وتاريخ، ص٧١– ٧٥؛ وفتحي يكن، مشكلات الدعوة والداعية، دار الشهاب، باتنة الجزائر، دون طبعة وتاريخ، ص ١٠٥ – ١٢٤؛ ومعتصم بابكر مصطفى، من أساليب الإقناع في القرآن الكريم، كتاب الأمة، قطر، رقم ٩٢، ذو القعدة وذو الحجة ١٤٢٣هـ، السنة الثانية والعشرون، ص١١٢– ١١٥.

٢ – السنة النبوية المطهرة: القولية والعملية والتقريرية، عبر صحاحها وسننها ومسانيدها وشروحها، كمفاتيح تدبر وفهم صحيح لممارسات رسول الله ﷺ الدعوية.

٣ – فهم وعمل الصحابة، وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون، رضوان الله تعالى عليهم.

٤ – اجتهادات التابعين وتابعيهم من أعلام الأمة ثم الذين يلونهم، الأمثل فالأمثل.

٥ – حركية التاريخ الإسلامي وتعاقباته السُننية.

٦ – التراكمات المعرفية والعلمية والخبراتية المادية والمعنوية الأفقية والعمودية، التي توصل إليها العالم، عملا بالمبدأ القرآني: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (البقرة: ٢٢١)[1].

– ثانياً: فقه الواقع:

ونعني بفقه الواقع: الرؤية الشمولية لكل المعطيات الواقعية: الجغرافية، والديمغرافية الرقمية والرمزية، والفكرية، والفلسفية، والتاريخية، والاجتماعية، والاقتصادية، والتربوية، والاتصالية، والإعلامية والسياسية... التي تشكل أطر علاقات المجتمع البشري المحلي والإقليمي والعالمي.. ويدخل في فقه الواقع علم

(١) انظر: الغزالي، محمد، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، ص ٥٥– ٨١.

فقه المواقع لكافة مراكز الاستقطاب والتأثير المحلية والعالمية، ومختلف قوى المجتمع الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية.. أو ما توصلنا إليه في تعريفنا السابق، وهو:

محصلة وعي وفقه القائم على صناعة وتشكيل وصياغة إحداثيات الخطاب الديني[1]، وتنزيلاته على مجموع ومكونات وتفاعل العناصر المادية والمعنوية والأدبية المتشابكة وذات الصلة والعلاقة الوطيدة بوجود وبقاء واستمرار الفرد والجماعة والمجتمع والكيان سُنَنياً وزمكانيا وكيانيا وإمكانيا[2].

وهذا العلم الواقعي يفرض على الداعية أن يحسن التعامل مع فقه المواقع والتموقع، بحيث يتقن فن التموقع، وتوجيه الخطاب المناسب من الزاوية المناسبة وبالمنهجية المؤثرة تجاه فئة من المدعوين دون سواهم عملا بالمبدأ القرآني: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى

---

(١) مكونات الخطاب الديني المرجعي المستنبط من (الكتاب والسنة وفهوم وعمل الصحابة والتابعين وتابعي التابعين والذين يلونهم من خيار سلف وخلف الأمة من جيل المؤسسين والمنظرين والمحققين والشارحين..)، هي: (الخطاب التوحيدي العقدي، الأصولي، الفقهي، المقاصدي، الدعوي، الاجتهادي، القضائي، الإصلاح الاجتماعي والسياسي والتربوي والتعليمي والثقافي والفكري..).

(٢) ركن الوعي مكوِّنٌ أساس في تعريف وفهم العملية كلها، ويجب أن يكون نوعية هذا الوعي إسلاميا، لا وعيا علمانيا أو إلحاديا، أو وعيا سكونيا، أو سلبيا، أو مصلحيا.. لمزيد من التوسع: انظر: عيساوي، أحمد محمود، تيارات وقضايا فكرية معاصرة، مرجع سابق، ص١٤٢.

وَسُبْحَانَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ (يوسف:١٠٨)، وفي الزمن المناسب[1]؛ لأن «السلف الذين حملوا الإسلام قديما واقعيين، يعرفون مراد الله بذكاء، وينفذونه بدقة، والإسلام –كما نعرفه من كتاب ربنا وسنة نبينا– فطرة سليمة لا فطرة ملتاثة، وتعاليم يعيها أولو الألباب لا أولو الثقافة القاصرة والأحكام البلهاء. وقد أحس ورثة المدنيات القديمة أنهم أمام عقل أذكى من عقولهم، وخلق أنبل من أخلاقهم، وبر بالشعوب أوسع من برهم، وأدركوا أن صفحتهم يوم تطوى فلكي يرى العالم صفحة جديدة، أملا بالرحمة والعدل يخطها أولئك الذين رباهم محمد ﷺ.. فهل كذلك الداعون إلى الإسلام في يوم الناس هذا؟ إن التفكير الواقعي في معالجة شؤون الناس هو الذي أنجح الإسلام قديما، وجعل الناس يدخلون في دين الله، أما معظم مسلمي اليوم فأبعد عن قضايا الشعوب المصيرية الشاملة. وأحب أن ألفت الأنظار إلى تغير في الفكر العالمي صبغ الإنسانية الآن، أساس هذا التغير الحفاوة بالمنطق التجريبي، والزهد في المنطق الفلسفي... وعلى الدعاة من سلف وخلف أن يلزموا أسلوب القرآن الكريم في عرض المعتقدات، وأن يشغلوا أنفسهم بتقديم حلول إسلامية للمشكلات المحدثة والأزمات المادية والأدبية الطارئة...»[2].

---

(١) انظر: الغزالي، محمد، الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر، ص١٤٢؛ وبوعود، أحمد، فقه الواقع أصول وضوابط، كتاب الأمة، مرجع سابق.

(٢) انظر: الغزالي، محمد، هموم داعية، دار الشهاب، باتنة الجزائر، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ١٢٩ – ١٣٠.

– ثالثاً: الحس الحضاري العالي المستوى:

ونعني بالحس الحضاري العالي المستوى لدى الداعية الإسلامي: امتلاكه قدرات السيطرة والتحكم في أهم الوسائل والتقنيات والمناهج والأساليب الحديثة، وقبول النقد والاستفادة من نقد وتوجيهات الآخرين[1]؛ لأن «.. الداعي إذا كان قد آمن بدعوته صدقا وإخلاصا، فإنه لن يضيق صدرا بما يريش إليه من مختلف الناس من سهام نقدهم واعتراضاتهم، ولن يحاول أن يستر عنهم خطأ إذا وجده في أعماله، ولكنه سيستفيد من خدماتهم وجهودهم، التي يبذلونها متطوعين لإصلاحه بدون ما أجر ولو بنية المعارضة والمعاداة..»[2].

– رابعاً: الصفات الفطرية والمكتسبة:

وهي مجموع ما وهبه الله سبحانه وتعالى للداعية من: إمكانات وطاقات ومواهب وقدرات وعطاءات عقلية وجسدية ووجدانية عملا بالمبدأ القرآني ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ...﴾ (النحل:٥٣)[3].

---

(١) انظر: جمعة، أمين، الدعوة قواعد وأصول، ص ٨٨- ٩٠.

(٢) المودودي، أبو الأعلى، تذكرة دعاة الإسلام، دار القلم، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، ص٣٦.

(٣) لمزيد من التوسع انظر: زيدان، عبد الكريم، أصول الدعوة، ص ٣٣٣- ٣٦٩؛ وفتحي يكن، قوارب النجاة في حياة الدعاة، دار الشهاب، باتنة الجزائر، دون طبعة وتاريخ، ص٩٥ -١١٧.

– خامساً: الثقافة الشمولية الواسعة:

الثقافة الشمولية الواسعة ركن أساس في نجاح الداعية، وأس هذه الثقافة كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله الكريم ﷺ عملا بالمبدأ القرآني: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (ص:٢٩)، والعلم النافع والغزير عملا بالمبدأ القرآني: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ (محمد:٢٤)؛ لأن «.. الداعية الذي يريد – أو نريد له – أن ينتصر في معركته على الجهل والهوى والتسلط والفساد، أن يتسلح بأسلحة شتى لازمة له في الدفاع والهجوم.. وأول هذه الأسلحة –ولا ريب– سلاح الإيمان، فبدونه يبطل كل سلاح، وتفشل كل ذخيرة.. وثاني هذه الأسلحة هو: الأخلاق، وهي من لوازم الإيمان الحق وثماره، وأكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا.. وثالث هذه الأسلحة هو: العلم أو الثقافة، فهذه العدة الفكرية للداعية بجوار العدة الرويحة والأخلاقية الدعوة عطاء وإنفاق، ومن لم يكن عنده علم ولا ثقافة، كيف يعطي غيره، وفاقد الشيء لا يعطيه، ومن لم يملك النصاب كيف يزكي؟»[1]، والتجربة الثرية والعميقة عملاً بالمبدأ القرآني ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ (الأنبياء:١٠٥)[2]؛ لأن «.. الداعية الذي يحسن استخدام

(١) انظر: القرضاوي، يوسف، ثقافة الداعية، ص٦– ٧.

(٢) انظر: جمعة، أمين، الدعوة قواعد وأصول، مرجع سابق، ص٤٤– ٧٥؛ ومعتصم بابكر مصطفى، من أساليب الإقناع في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص١١٢– ١١٥.

حقائق العلم في المجالات، التي ذكرناها يجد طريقه إلى أذهان الناس وعواطفهم سهلا معبدا، ويقع كلامه من نفس المثقفين العصريين موقع القبول وحسن التأثير، ولعل هذا من أظهر الأسباب وراء نجاح بعض الدعاة المرموقين في عالمنا العربي اليوم..»[1].

– سادساً: الأخلاق الإسلامية العملية:

وذلك عملاً بالمبدأ الإسلامي: «**كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ**»[2]، وعلى رأسها خلق الصبر والعزيمة عملا بالمبدأ القرآني: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ (الأحقاف:٣٥)،

وروح التفاؤل والأمل عملا بالمبدأ القرآني: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ (يوسف:٨٧)،

والأمانة عملا بالمبدأ القرآني: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ (القصص:٢٦)،

وخلق التقوى والإخلاص عملا بالمبدأ القرآني: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ (البينة:٥)،

ومخالطة الناس والصبر على أذاهم عملا بالمبدأ القرآني: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا﴾ (الفرقان:٦٣)،

---

(١) انظر: القرضاوي، يوسف، ثقافة الداعية، ص١٣٩.

(٢) أخرجه أحمد، مُسْنَدُ الْعَشَرَةِ الْمُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّةِ، عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ ﷺ.

والتواضع الحقيقي لهم عملا بالمبدأ القرآني العظيم: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص:٨٣)،

والرفق والرحمة بهم، عملا بالمبدأ القرآني العظيم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران:١٥٩)،

والحلم والأناة معهم، عملا بالمبدأ القرآني: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ (النحل:١٢٨)[1]،

والتربية بالقدوة الصالحة؛ لأن «.. الخلق الحسن، والسلوك الخيّر هو الذي يغري الناس بالإسلام، وليس السوط والأثرة وحظوظ النفس.. فهل نعيد قراءة سلوكنا في العمل الإسلامي وطرائقنا في الدعوة إلى الله فيكون شعارنا: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾..»[2]؟

– سابعاً: إدراكه الشامل لحجم التحديات الإعلامية والثقافية والحضارية التي تواجه الوجود الإسلامي:

وعلى رأس هذه التحديات:

حجم سيولات التدفق الإعلامي الغربي المعادي الموجّه لأمتنا العربية والإسلامية، والمتمثلة في الكم الهائل من الحصص والبرامج والخطط والمضامين

---

(١) لمزيد من التوسع انظر: الغزالي، محمد، خلق المسلم، دار الشهاب، باتنة الجزائر، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م؛ عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، ص٣٢٥ – ٣٦٩؛ وغيرهم.
(٢) حسنه، عمر عبيد، نظرات في مسيرة العمل الإسلامي، ص٣٧.

والرسائل الإعلامية، التي تهاجم بقوة الفرد المسلم عبر ترسانة هائلة من الأجهزة والهيئات والمنظمات، والوسائل المسموعة والمكتوبة والمرئية والإلكترونية، فضلا عن فتن ودعايات الحركات الباطنية والهدامة [1].

وبهذه المقومات الأساسية، التي عرضناها آنفا، يمكن للداعية الإسلامي أن يكون – بحق – مكافحا ومنافحا ومدافعا حقيقيا عن الإسلام، وعن الوجود الإسلامي، وعن الدعوة الإسلامية، وعن الحضارة الإسلامية ولغتها العربية محليا ووطنيا وإقليميا وعالميا.

ولا يستطيع الداعية أن ينجح في ممارسة عمله الدعوي بغير فقه رشيد لمقاصد الشريعة الإسلامية في جمهور المدعوين، ويظل عمله الدعوي متعثرا وقاصرا في تبليغ رسالته لتبلبله واضطرابه في الوقوع على مواطن الخطاب الجذّاب لقلوب المدعوين، الذين يستجيبون فقط للرسالة التي تدرك ضروراتهم وتستجيب لحاجياتهم ولا تهمل تحسينياتهم، فقد نقلت لنا المصادر الإسلامية

---

(١) انظر على سبيل المثال: هانس بيتر مارتين وهارالد شومان، فخ العولمة، ترجمة الدكتور عدنان عباس علي، مراجعة: الدكتور رمزي زكي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، رقم ٢٣٨، جمادى الآخرة ١٤١٩هـ/أكتوبر ١٩٩٨م؛ العويني، محمد علي، الإعلام الدولي بين النظرية والتطبيق، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، ص٤٠؛ وعيساوي، أحمد محمود، الإعلام الجديد وتداعيات الموجة الإلكترونية المعاصرة، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م، وغيرها من المصادر والمراجع ومواقع التواصل الاجتماعي.

أن الصحابي الجليل عُثْمَان بْن مَظْعُونٍ، الْجُمَحِيّ رضي الله عنه [1] ظل وفياً لكلمة الإيمان، التي نطق بها أمام رسول الله ﷺ طيلة ست سنين من عمر الدعوة الإسلامية، ولكن أعماقه كانت تعتلج باحثة عما يثلج صدره من الناحية الاجتماعية في تلك التعاليم المنزلة إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل:٩٠)، فلما نزلت وقرأها وفهمها واعتبر بمعانيها وقيمها، قال:

«الآن استقر الإيمان في قلبي، وقلت في قرارة نفسي: إن دينا جاء ليدعو إلى العدل، ولينظم الحياة الاجتماعية هو دين من عند الله لا من عند محمد، فالله الذي يأمر بثلاثة وينهى مقابلهن عن ثلاثة في حياة الأفراد والجماعة هو رب حقيقي، وتعاليمه هي تعاليم حقيقية ليست من صنع محمد، عليه الصلاة والسلام، بل هي قطب القرآن..»[2].

---

(١) أَبُو السَّائِبِ، عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونِ، الْجُمَحِيُّ، مِنْ سَادَةِ الْمُهَاجِرِينَ، ومِمَّنْ حَرَّمَ الْخَمْرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ.. أَسْلَمَ بَعْدَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا، وَهَاجَرَ الْهِجْرَتَيْنِ.. كَانَ عَابِدًا مُجْتَهِدًا، وَمِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ فَازُوا بِوَفَاتِهِمْ فِي حَيَاةِ نَبِيِّهِمْ ﷺ فَصَلَّى عَلَيْهِمْ.. تُوُفِّيَ بَعْدَ بَدْر، فِي شَعْبَانَ سَنَةَ ثَلَاث، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ دُفِنَ بِالْبَقِيع.. انظر السيرة النبوية لابن هشام؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، مؤسسة الرسالة، طبعة ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م،ج١، ص١٥٣ وما بعدها.

(٢) انظر: الكرمي، مرعي بن يوسف المقدسي الحنبلي، قلائد العقيان في أن الله يأمر بالعدل والإحسان، تحقيق: عبد الكريم الأنيس، طبعة دار الأحمدية، دبي، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م، ص٤٣ – ٤٥، بتصرف.

وإذا تأملنا في الآية، التي كانت سببا في تعمق واستقرار الإيمان في صدر هذا الصحابي الجليل، لوجدناها آية غطت أبعاد الخطاب المقاصدي والاجتماعي لدى هذا الصحابي الجليل، وهي مقصد حقيقي وصرف إذا قيس بموازين ومعايير ومناهج وأدوات البحث الاجتماعي بمختلف فروعه وتخصصاته: المعرفي والعام والسياسي والثقافي والاقتصادي والأخلاقي والتربوي والبيئي والذي هو مقصد من مقاصد الشريعة في حفظ وصيانة ضروريات وحاجيات وتحسينيات المكلفين.

وفي معرض هذا يذكر أستاذنا الراحل الدكتور «محمد التومي» في كتابه القيم «المجتمع الإنساني في القرآن الكريم»[1] قوله:

«ولقد أفادت أسباب النزول أن عثمان بن مظعون الجمحي لما نزلت الآية المكية، التي اعتبرها ابن مسعود: «أَجْمَع آيَة فِي الْقُرْآن لِخَيْرٍ أَوْ لِشَرٍّ»[2]، وهي قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ

(١) انظر: التومي، محمد، المجتمع الإنساني في القرآن، دار الكتب التونسية للنشر والتوزيع، تونس، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص١٩ –٢٠.

(٢) أخرجه مسلم، برقم ١٢٩٧؛ وفي مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ج٦، ص٤١٩؛ والسيوطي في الجامع الصغير؛ والدر المنثور، ج١، ص٣٢٣؛ وابن مردويه والشيرازي في الألقاب؛ واللهوي في فضائل ابن مسعود، السلسلة الضعيفة ١١٢٤/١٤.

تَذَكَّرُونَ ۝ ﴾ (النحل: ٩٠)، قال: «فَذَاكَ حِينَ اسْتَقَرَّ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِي وَأَحْبَبْتُ مُحَمَّدًا ﷺ[١]»[٢].

وفي هذا الصدد يرى أستاذنا عبد المجيد النجار «ضرورة العناية بالمقاصد الاجتماعية، أي ذات الغرض الاجتماعي في خدمة وإصلاح المجتمع، كمقصد حفظ الحريات الاجتماعية العامة، كحرية الفكر والتعبير، والحرية السياسية، ومقصد حفظ العدالة الاجتماعية، ومقصد المساواة في الحقوق، ومقصد الشورى في الحكم، وحفظ الكفالة الاجتماعية بسد حاجات الناس للفقراء والمعوزين..»[٣].

وعليه، فالدين الإسلامي دين القيم الاجتماعية السوية والصادقة؛ لأنه من لدن خالق السموات والأرض، ولذا فقد راعى فيه سبحانه وتعالى هذا المقصد الاجتماعي العظيم.. ولأن العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى مقاصد اجتماعية عظيمة رعاها الشارع الحكيم واختصها بالتعيين.. ولأن التفحش

---

(١) أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) برقم (٨٩٣)؛ وأحمد في مسنده، ج١، ص٣١٨ برقم (٢٩٢٢)، ج٢١، ص١٩٧؛ والطبراني في المعجم الكبير، ج٩، ص٤٠، برقم (٨٣٢٢)؛ وفي غاية المقصد في زوائد المسند، في مناقب عثمان بن مظعون، ج٢، ص١٥٠٣.

(٢) انظر: التومي، محمد، المجتمع الإنساني في القرآن، ص١٩- ٢٠.

(٣) انظر: النجار، عبد المجيد، المقتضيات المنهجية لتطبيق الشريعة في الواقع الإسلامي الراهن، بحث مقدم في ندوة قضايا المستقبل الإسلامي، الجزائر، ٤-٧ مايو ١٩٩٠م، ص ٥٣ -٥٥.

وتجاوز الحدود، والمنكر المسيء لطبيعة الأمور وجبلة الأشياء، والبغي المناقض للعدل، مقاصد منكورة في ذاتها، هادمة ومعطلة لغيرها، كونها تتنافي ومقاصد الشريعة.

ومن مقاصد الشريعة في الدعوة: حكمة الداعية في عرض حقائق الدين وأحكامه على جمهور المدعوين قولا وعملا، فقد «كان يرى ﷺ جواز التخفيف في العبادة لحاجة من الحوائج الدنيوية، فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إِنِّي لَأَدْخُلُ فِي الصَّلَاةِ فَأُرِيدُ إِطَالَتَهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ مِمَّا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ مِنْ بُكَائِهِ**»[1].

ومن مظاهر فقه الداعية لهذا الدين: الاقتصاد في العبادة، وترك التنطع، وتحريم الابتداع والزيادة في الدين بغرض اكتساب الثواب، فقد أُثر عن رسول الله ﷺ قوله: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا...**»[2].

وهكذا الدين كله، ومقاصده، يسر واقتصاد ومنافع ونظر في واقع الناس.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، بَاب مَنْ أَخَفَّ الصَّلَاةَ عِنْدَ بُكَاءِ الصَّبِيِّ، ج١، ص٢٠٥، حديث رقم ٦٧؛ ومسلم، كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة، ج١، ص٣٤٣، حديث رقم ٤٧٠؛ وغيرهما.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأيمان، باب الدين يسر، ج١، ص١٥، حديث رقم٣٩؛ أحمد في مسنده، ج٢، ص٢٥٨، حديث رقم ٧٥٠٤؛ أبو داود في سننه، ج١، ص١٢، حديث رقم٤٦، وغيرهم.

ومن عظيم مقاصده سبحانه وتعالى بعباده: تنزيل القرآن عليهم منجما طيلة ثلاث وعشرين سنة، تربية وتأديبا وتعويدا لهم لاعتبارات ومنافع ومقاصد كثيرة جدا، وهو ما يجب أن يستوعبه الدعاة إلى الإسلام خلال ممارسة عملهم الدعوي، .

فليس «من السهل على النفس البشرية أن تتخلى عن ما ورثته من عادات وتقاليد، حيث كان عرب الجاهلية قد توارثوا الكثير من العادات والتقاليد الوثنية والجاهلية، التي لا تتفق وشريعة الإسلام، كوأد البنات وشرب الخمر وحرمان البنات من الميراث وغير ذلك من العادات، التي جاء الإسلام وحاربها، فاقتضت رحمة الله تعالى أن يُنزل أحكامه شيئا فشيئا، تهيئة للنفوس وتدرجا بها لترك ما تعلقت به من عادات، فكان الإسلام كلما نجح معهم في هدم باطل، انتقل إلى هدم آخر حتى طهرهم منها دون حرج ولا عنت»[1].

وبناءً على ما سبق، ومن خلال هذا التأسيس المرجعي السريع من كتاب الله وسنة رسوله الكريم ﷺ وبعض الإطلالات المقاصدية لهذا الدين، نتبين من مبلغ حكمته وعلمه في معرفة أسرار ومقاصد التشريع وقدرته على سياسة النفوس في التربية والإصلاح، وهي جزء من الحكمة القرآنية، التي تعلمها عن طريق الوحي في قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ

(١) عمران، عزت يوسف بخيت، الرحمة الإلهية، ص١٣٤.

حَرَجٍ ﴾ (الحج:٧٨)، وقوله: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ (البقرة:١٨٥)[1].

وبعد أن تبينا ثقافة وزاد الداعية الناجح، ننتقل إلى المطلب الثاني التطبيقي لنرى كيفيات استثمار الداعية لثقافته الشاملة في تسديد الرؤية المقاصدية والواقعية لأثر العبادات في الأنفس والأفراد والجماعات.

ولنأخذ – على سبيل المثال– حذق الداعية وفهمه للأبعاد المقاصدية والواقعية لعبادة الصيام كعبادة سنوية، وكيفية تصوره ورؤيته لها، أثناء إعداده لخطابه الدعوي، ومنازل تأثيرها في محالِّ ومجالِّ التنزيل.

(١) انظر: حامدي، عبد الكريم، المدخل إلى مقاصد القرآن، ص٨٤.

المطلب الثاني

علم المقاصد وفقه الواقع والمحل ودوره في نجاح الداعية

– رؤية فكرية وتدبرية من الداخل:

نتساءل في بداية هذا المطلب المهم، وبعد أن تبينا في المطلب الأول أدوات وعدة وثقافة الداعية الضرورية لنجاح عمله الدعوي، وكأننا نحن الدعاة –أنفسنا– المعنيين والمكلفين بإعداد وصياغة الخطاب الدعوي الموجّه لجمهور المدعوين حول إحدى الشعائر التعبدية، وهي عبادة الصيام، ولسنا المنظرين والموجهين للقائمين على إعداد وعرض المسألة الدعوية لجمهور المدعوين، وما هو الواجب تقريره واستصحابه من قبل الداعية الناجح أثناء عمليات الفهم والإعداد ثم الاتصال والتوجه، ومكان وأثر علمي المقاصد وفقه الواقع ومحل التنزيل في تفاصيل تلك المسألة وأركان العملية الدعوية برمتها.

كما نتساءل قائلين أيضا، وكأننا نحن الدعاة: هل لعلم المقاصد من أثر ودور في نجاح عمل الداعية؟ وهل له من تأثير في جذب وتحريك وإثارة جمهور المدعوين؟ وهل يحق لنا أن نطرح بعض التساؤلات المقاصدية حول فقه ومقاصد هذه العبادة السنوية المتميزة؟

وهل يحق لنا اعتبار أن العبادة هي المنطلق والوسيلة السوية والصحيحة والوحيدة القادرة على بناء وترميم الشخصية المدنية والحضارية والثقافية للإنسان والجماعة والمجتمع والكيان المسلم مصداقا لحكمة سيدنا عمر رضي الله عنه: «نحن قَوْمٌ أَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ، وإذا ابتغينا الْعِزَّةَ في غَيْرِهِ أَذَلَّنَا اللَّهُ»[1]؟

وهنا أنطلق وكأنني أنا الداعية المسؤول عن إعداد متن الخطاب الدعوي وتوجيهه لجمهور المدعوين فأقول: بعد كل هذه الطروحات، التي رصفتها رصف وعي واستبصار حول كُنْهِ وحقيقة ومكانة العبادة كقيمة مركزية في الإسلام، ومدى فاعليتها وقوتها الإيجابية وتأثيراتها التربوية والتعليمية والنفسية والروحية والأخلاقية والقيمية والاجتماعية والاقتصادية والأمنية والصحية في صناعة وصياغة الجماعة والنفس البشرية السوية والواقع الإسلامي السوي والمثالي، وهو عين وعي الداعية الناجح بكنه متونه وخطاباته وتواصلاته المتشعبة.

وأعتبر نفسي كداعية مسؤولا ومكلفا هنا بأن أمارس حقي الطبيعي والشرعي في التساؤل والتثاقف مع الآخر، والتساؤل أيضا مع وبين واتجاه وصوب دخائل الذات الواعية الراشدة، كما مارسه أبو الأنبياء خليل الرحمن

---

(١) ابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان، صحيح ابن حبان، المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع، تحقيق محمد الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م، من حديث عمرو بن العاص، حديث رقم٦٥٦٤، وحسنه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان، حديث رقم٦٥٣٠.

إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، حين خاطب ربَّه لمحاولة وضع خط الاستبصار وطرح السؤال والتساؤل المعرفي والمنهجي الواعي، بهدف معرفة مقاصد وأبعاد وغايات الكثير من المسائل، التي شرع الله بابها ولم يوصده وجعله مُشْرَعاً لمن امتلك أدواته العلمية والمعرفية والمنهجية والروحية والأخلاقية.. في تلك التجربة المعرفية والمنهجية الواردة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٠).

ونحن إذْ نحاول ونحاول بهذه الطريقة السننية القرآنية السؤال والتساؤل مع الآخر والذات، فإنما نرتع بهذه المراوحة العقلية لنمارس ونُحيي سنة قرآنية لا غير، لا يملك أحد حق منعنا من ممارستها، بل ندعوه هو لتجريبها ولو مرة واحدة في حياته، ليعيش مع إرشادات وتعاليم القرآن الكريم، ويستمتع بنعمة من نعم الله، التي لا تحصى عليه.

ومنها هذه المحاولة والمحاولة التساؤلية المقاصدية، التي يجب أن يحييها الداعية في نفسه وفي مدعويه، ومفادها الآتي:

هل يتوقف الأمر الديني والتبليغي للداعية على تعليم جماهير المسلمين فقه عباداتهم وأدلتها ومسائلها وسننها وآدابها ومستحباتها ونواقضها الظاهرية فقط؟ أم أنه موكول بتعليمهم وتفقيههم مقاصدها وأبعادها الكلية المنوطة بهم كمحل للتنزيل؟

ونحن نعلم جميعا أن فطرة الله، التي فطر الناس عليها يوم فطرهم وخلقهم وبراهم، إنما أوجدهم وصممهم سبحانه وتعالى في الأصل الأول على ملة التوحيد وعلى عبادات الإسلام.. والرؤية المقاصدية تحتم علينا التسليم بالقول: إن حفظ وسلامة العقل رهينة بسلام وحفظ الدين والذي على إثره يترتب حفظ وسلامة النفس والنسل والمال.. فلا سلامة ولا حفظ لهذه الثلاثة الأخيرة (النفس، النسل، المال)، إلاّ بسلامة وحفظ العقل، الذي تضمن سلامته وحفظه شرائع وقيم ومبادئ الدين.

فهي كما ترى حلقات مترابطة ببعضها ترابط بناء واقتضاء ووجود وحتمٍ، وأي خلل يصيب أُسها الأول (الدين) يقتضي تداعيها وتفككها وانحرافها وضلالها. ونحن نؤمن أيضا أن تعَلُّمَ فقه العبادات لا يضمن لنا تأدية العبادة على وجهها الصحيح والسليم فقط، بل يجب أن يضمن لنا السير السوي نحو العلم والوعي بجوهر هذه العبادة المركزية، نحو إعادة الروح والفاعلية والقوة الإيجابية لهذه العبادات اليومية والأسبوعية والشهرية والسنوية والعمرية، وينهض بتأثيراتها الفردية والجمعية والاجتماعية المختلفة، ويُخرجْ هذه العبادات من طقوسها الفارغة والجوفاء، التي آل إليها أمر المسلمين المستضعفين في الأرض.

فعلي سبيل المثال، ففي شهر رمضان ترتفع نسبة الشجار والصدام والنزاعات والعنف الاجتماعي، على عكس المقصد الرئيس من هذه العبادة، التي هي حماية ووجاء، لقوله، عليه الصلاة والسلام، لذاك الشاب: «...**فَعَلَيْهِ**

بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»[1]؛ لأن جوهر وكُنْهَ العبادات صلة وصل حقيقية بالله القوي الواحد القهار، ومدد رباني زاخرٌ للمتعبدين الحقيقيين.. أما المرغمين أو المدفوعين بحكم العادة أو التعود أو خشية الرقيب الاجتماعي أو الرادع القانوني أو نحوه فهم يؤدون مجرد طقوس مفرغة من محتواها وبعدها المقاصدي، فلا استجابة مطلوبة ولا أثر يُرجى في ارتقاء الأمة من ممارسة هذه العبادات.

وهنا وجب على الداعية أن يجاول الحديث النفسي في أعماق ذاته قائلا بصمتٍ: لن نستطيع كمسلمين – عالم إسلامي متخلف– أن نرجع إلى سابق عطائنا وتفوقنا وريادتنا الحضارية العالمية، إلاّ بالعودة الواعية والعميقة لفقه ومقاصد وغايات العبادات، ووفق المقاصد الكلية الكبرى، التي قعَّدها الله لعباده وهم يمارسون تلك العبادات، ممارسة وعي واستلهام واستمداد طاقوي رباني لا يعرفه إلاّ من عاينه وعاناه وكابده ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ (النساء:١٠٤)؛ لأن العقائد والعبادات وجهان لعملة واحدة، وما العبادات إلاّ الترجمة والوجه الحقيقي والوحيد المُعَبِّرِ عن كلمة التوحيد.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب من لم يستطع الباءة فليصم، حديث رقم ٥٠٦٥، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: دَخَلْتُ مَعَ عَلْقَمَةَ وَالْأَسْوَدِ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ شَبَابًا لَا نَجِدُ شَيْئًا، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»**؛ وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤونته، حديث رقم ١٤٠٠.

مستمرا في تحليل الموقف التاريخي لحاجة الإنسان الماسة لممارسة العبادة، منداحا نحو القراءة التاريخية لنشوء ونمو المدنيات – الحضارات القديمة– ليراها وعلى الرغم من الإعراض عن رسالات ربها ودعوات أنبيائها ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر:٢٤)، قد نشأت ونمت وحكمت وامتدت في ظل المعابد والكهان والعبادة الطوطمية والأوثان والطقوس والقرابين والتضحية والفداء.. فما بالنا بأمة ومدنية وحضارة تملك دينا تنزّل من لدن رب العزة، وهو الإسلام، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد؟

فلو أعطينا العبادات حقها ووعيناها حق مقصدها لأكلنا من تحتنا ومن بيننا ومن فوقنا، ولرأينا آثارها فينا وفي مجتمعنا وعمراننا ومكاننا بين الأمم المتغلبة اقتصاديا وإنتاجيا، ضاربا مثالا عن أهمية فقه علم المقاصد في العبادات للداعية وللقائم بعملية الاتصال الدعوي ودوره في نجاح عمله الدعوي، وليكن أنموذجه هو: عبادة الصيام السنوية.

– أولاً: البيان المقاصدي لعبادة الصيام:

وينداح ويسترسل الداعية عبر دخائله النفسية والفكرية والمنهجية مؤكدا أن عبادة الصيام في حقيقتها هي: توقف مفاجئ وقطعي وحتمي عن كل ما اعتاده الفرد، ماديا وجسديا وروحيا ومعنويا وتواصليا، طيلة شهر رمضان من كل سنة.. فمقابل كل أحد عشر (١١) يوم فطرٍ يقابله يوم واحدٌ صيام، وكل ثلاثمائة وستة وثلاثين (٣٣٦) يوم فطرٍ يقابله (٣٠) يوما صياماً.. ولكن التعريف الفقهي العام الصيام هو: فريضة على كل مسلم بالغ عاقل،

وهو بالمعنى المخصوص: الامتناع عن الأكل والشرب والجماع أو القيام بأي شيء يفسد الصيام (كالتقيء العمدي والفصد ونحوها...) بنية مخصوصة من أذان الفجر إلى أذان المغرب.. فضلا عن سننه وآدابه الروحية والوجدانية والمعنوية والأدبية.

فهو بهذا البيان الجامع عبادة مقصدية كبرى، الهدف منها حفظ الدين، وبحفظ المسلم وإتيانه لهذه العبادة على وجهها الأكمل والصحيح ماديا ومعنويا وروحيا، يقصد بذلك إصلاح وحفظ النفس والعقل والنسل والمال، وهو ما يعني فقها حقيقيا للواقع، ومن ثمة حصول نهضة حقيقية بمكونات الواقع المدادية والمعنوية والأدبية والقيمية.

وبقراءة مقاصدية وواقعية وفقهية لمحل التنزيل، فإن المسلم الصائم عندما يلتزم بقواعد وأسس وشروط وكيفيات هذه العبادة كما نزلت في القرآن الكريم وكما بينتها ووضحتها وفصلتها السنة النبوية المطهرة وفق مذهب السلف الصالح من الأمة إلى اليوم، فهو يقوم بعملية التزام وضبط جسدي ومادي وروحي وعقلي ونفسي شامل لعقله (التفكر في مقصد ومعنى هذه العبادة)، وقلبه (النية المعقودة في القلب)، وجسده (الامتناع عن المباحات لوقت مخصوص)، وعلى المستوى الفردي الذي لا بد أن ينعكس على المستوى الجمعي والاجتماعي (الإحساس بالفقر والجوع والحرمان والحاجة، والدعوة للبذل والعطاء).

وعليه، فقد رفع الإسلام من قسمة وأسهم وسندات بورصة الأعمال الصالحة في مواسم السوق الرمضاني الفضيل دون سائر الأشهر والأيام

والمناسبات، فالصدقة والزكاة وتفطير الصائم ونحوها من الأعمال، لها ميزانها الثقيل في رمضان، وكذلك عبادة الصلاة وقراءة القرآن وقيام الليل والاعتكاف.. وعمرة رمضان تعدل حجة مع رسول الله ﷺ وصحبه الكرام، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.. وهكذا يزداد رصيد الأعمال في مزاد رمضان دون سائر الشهور الأخرى.. وهكذا دواليك في سائر آثار وتأثيرات عمليات التواصل الاجتماعي السوي أو المنحرف «**وَإِنِ امْرُؤٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ**»[1] فلا يبادله الإساءة والعنف.

وبقراءة مقاصدية وواقعية وفقهية لمحل التنزيل، فإنه بصلاح الدين وصفاء مشربه وطيب نبعه المأخوذ عن السلف والخلف الصالح من علماء وفقهاء وأخيار ودعاة الأمة، يصلح دين المرء، وهو المقصد الأول، فإذا سلم وصح واستقام المقصد الأول، حتما سيصح وسيسلم المقصد الشرعي الثاني وهو العقل، فيصير المسلم ذا عقيدة سنية سوية، فهو يبرأ من كل انحراف أو زيغ في العقيدة، ويرى أن الإيمان اعتقاد بالجنان وقول باللسان وعمل بالجوارح والأركان، وهو يزيد وينقص، فيبرأ من عقيدة الإرجاء، ويرى أن الله هو مقدر الأمور ومسيرها، فيبرأ من عقيدة القدرية، ويتبع إماما من الأئمة الأخيار (أبو حنيفة، مالك، الشافعي، أحمد) والمشهورين بالصلاح من أئمة الهدى عبر التاريخ الإسلامي في الأصول والفروع فيبرأ من كل ضلال أو انحراف.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصوم.

وإذا صلح العقل صلُحتْ معه وبعده النفس، واطمأنت وسكنت وهبتْ للرقي والتنمية والعمل والجد والنهضة بنفسها وأسرتها وجماعتها ومجتمعها ودولتها وكيانها، والذبِّ والدفاع عنها في شتى الميادين والمجالات المختلفة، وإذا صَلُحتْ النفس صار تعاملها مع المال تعاملا شرعيا سليما، فيكفي توجيه الأثر لها عبر هذه القاعدة في المال لتكون منهجها في التعامل المالي من غير كنز ولا كنٍّ ولا بخل ولا إسراف ولا تقطير: «**لَيْسَ لَكَ مِنْ مَالِكَ إلا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ أَعْطَيْتَ فَأَمْضَيْتَ**».. ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾، ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾، وغيرها.. من القواعد، التي تحفظ المال.

وبصلاح النفس دينيا وعقليا وماليا ستصلحُ اجتماعيا (النسل والعقب)، وستُنتجب عقبا موحِّدا في الأرض، ذرية صالحة بعضها من بعض.. وهذا هو علم المقاصد وعلم فقه الواقع الحقيقي إن أحسن الداعية فقهه من جهة، واستثماره أثناء إعداد خطته الدعوية لجمهور المدعوين من جهة أخرى.

– ثانيًا: الصيام بين الرؤية المقاصدية والواقعية:

وهنا يجب أن يعلم ويوقن الداعية أن: العبادة التي نؤديها كل يوم وأسبوع وشهر وسنة وفي العمر ليست خدمة نسديها أو هدايا نقدمها لله تعالى، فهو غني عن عبادة العالمين، وهم لا يمثلون عنده سوى نزرا يسيرا: «**يَا عِبَادِي،**

لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ...»[1]، كما يتقدم الكهان وسدنة المعابد بالقرابين الحسية بين يدي الأوثان زلفى لله، بل العبادة أيها الصائمون مشروع متكامل ومدروس وخطة استراتيجية شاملة، ومنهج مقصدي للارتقاء بالنفس لكي تبلغ درجات الكمال وترى ربها راضيا عنها في الدنيا ويوم القيامة.

وعندما قربتْ لنا السنة النبوية فضل التبكير لصلاة الجمعة بالهدايا: «**مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ، ثُمَّ رَاحَ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً...**»[2]، فذلك من باب قاعدة المبادلة

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه، عن أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَنَّهُ قَالَ: «**يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا.. يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ.. يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ.. يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ.. يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ.. يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي.. يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا.. يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا.. يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ.. يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ».**

(٢) أخرجه الإمام البخاري، كِتَاب الْجُمُعَةِ، بَاب فَضْلِ الْجُمُعَةِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ، ثُمَّ رَاحَ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ حَضَرَتِ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ».**

الغريزية المذخورة في جبلة الإنسان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ...﴾ (الصف: ١٠-١١).

والقراءة المقاصدية لعبادة الصيام السامية، تدفعنا لمحاولة تعليل ما أدرجه الأصوليون في خانة اللامعقول من وعن التعليل، فندرك ما عجزوا عنه - بحول الله في ظل الكشوفات العلمية الفائقة في علم النبات والحيوان والبحار والمادة والجماد والفلك والنفس والاجتماع والطب والبيئة والطباع والاقتصاد والمال والتجارة والصناعة والتكنولوجية والذرة والهندسة الوراثية والكومبيوتر والاتصالات البرقية ومحركات البحث- عندما وضعوه في تلك الخانة غير القابلة للتعليل كعدد الصلوات والركعات وشعائر الحج... وغيرها.

وعلى الداعية أن يتهم نفسه بعد كل هذه المحاولات والمحاولات الفكرية والمنهجية والتدبرية فيقول بينه وبين نفسه أثناء عماية الإعداد: إنّ فهمي القاصر - والله أعلم- لمصطلح الأصوليين الشهير في تقسيمهم الأحكام من حيث التعليل: إلى معقولة المعنى، وأخرى غير معقولة المعنى، أي: (غير قابل للتعليل في مجال العبادات)، أو قول الفقهاء: «هذا تعبدي لا تُعرف حكمته ومقصده» عقبة منهجية مبهمة أغلقت طريق العقل وأخمدت شعلة توقده ونشاطه، وأثنت عزيمته عن البحث في استنباط المعاني والمقاصد المبثوثة في خبايا وخفايا العبادات، والمقصود منها غلق ما تُرك مُشرعا ومفتوحا لإدراك وفهم بعض ما يُريح النفس من إدراك بعض أسرار وخفايا وأعماق وجوهر العبادات، التي يمارسها الفرد المسلم بسائر قواه الحية: (عقله وروحه وجسده)؛

لأن كل حركة وسكنة وكلمة في العبادات محكومة بمقاصد ربانية عظيمة، ومعللة بركام من الحِكم المقصودة بعينها والتي يمكن للعقل الرشيد اكتشافها، أو السعي الحثيث لمحاولة ومجاولة اكتشافها.. فالطبيعة البشرية تكون أسعد وأنشط وأوعى عندما تعرف أسرار ما تقوم به من عبادات وغيرها، على العكس منها عندما تجهل الكثير من المقاصد والأسرار حتى ولو في مجال العبادات التوقيفية.

وعليه أن يطرح السؤال الآتي على نفسه وهو يعد الخطاب قائلا: هل حققنا مقاصد العبادات، التي شرعها الله لنا؟

وعليه أن يجيب عنها بكثير من القراءة الواقعية الأفقية والعمودية قائلا: إن العبادات (صلوات، صيام، حج، زكاة) التي يؤديها مليار ونصف من المسلمين في العالم، لم تستطع أن تغيّرهم نحو الأفضل، حضاريا وثقافيا واقتداريا وتمكينيا، أو أن تنقلهم من ذيل ومؤخرة العالم وتجعلهم في رأس الأمم، كأن يصطفوا صفا طويلا ومرتبا لممارسة سُنَّةٍ فقط كتقبيل الحجر الأسود، فيتصارعون دونه حتى تسيل الدماء من بعضهم ويجرح بعضهم ونحو ذلك مما شاهدنا.. وكان بإمكانهم أن يفعلوا ما يفعله مليار ونصف المليار صيني – الذين جهلوا ربهم، وقصَّرنا عن دعوتهم- حين يرتصفون بالتناوب طوابير لا نهاية لها من أجل إشباع شهوة غريزية فقط كركوب القطارات والحافلات والذهاب للعمل، واحترام الآخر والنظام الذي به تستمر الحياة!!

حتما سنعرف الإجابة بشكل برقي، وسنكتشف بسرعة مذهلة كيف تحولت وصارت عباداتنا مجرد طقوس مفرغة لا أثر ولا تأثير يُرجى منها، لأن الأفكار تنبني وتتأسس على التصورات والعقائد والعبادات، فإذا كانت قيمنا ومقدساتنا مشوهة فمن الطبيعي والمنطقي أن تنعكس على الإنسان والجماعة والعمران والكيان والضمائر والأوطان المدمرة والخاوية.. وإذا كانت العبادات تُقام بمعزل عن النفس والروح والوجدان والعقل الواعي والرشيد فهي مجرد نشاط اجتماعي مفرغ من محتواه الحضاري الدافع للعلا، ولن يكون لها أي أثر على كمال وجمال النفس السوية، التي ستبني ظلال الهدى في الأرض.

فمتى يدرك مقاصد العبادات؟ ومتى ينهض بروح وجوهر العبادات لينطلق بعدها نحو تعميق رؤيته المقاصدية والواقعية لهذه العبادة، التي اختارها لتكون موضوعا لخطابه الدعوي المقبل؟

– ثالثًا: رؤية مقاصدية واقعية لعبادة الصيام:

وهنا يتساءل بعد نهاية الدورة التكوينية الروحانية الربانية في مدرسة شهر رمضان والتي نال بها المسلمون ثلاث شهادات إسلامية، فدخلوا عشره الأول وصاموا وقاموا وتصدقوا وحازوا شهادة (**الرَحْمَة**)، وصاموا وقاموا وفطَّروا صائما عشره الثاني ونالوا شهادة (**المَغْفِرَة**)، وصاموا وقاموا وتزكوا زكاة الفطر عشره الثالث ونالوا شهادة (**العِتْق مِنَ النَّارِ**)، كما جاء في الحديث

الشريف في التهوين على المسلم من مشاق الصيام، وتعظيم أجره بباب الريان، الذي لا يدخله سوى من قام بعبادة الصيام[1].

وبالتالي، فقد نال المسلم إجازة مدرسية ربانية من مدرسة شهر رمضان. فإذا استبصرنا بالمبضع الجراحي المقاصدي حديث باب الريان، وحديث «..**وَهُوَ شَهْرٌ أَوَّلُهُ رَحْمَةٌ، وَأَوْسَطُهُ مَغْفِرَةٌ، وَآخِرُهُ عِتْقٌ مِنَ النَّارِ**» لوجدنا أن تعليلها وكشف اليسير من أسرارها الروحية والعائدية يُثلج كوامن ومشاعر ودخائل الفرد المسلم الصائم؛ لأن الفهم المقاصدي يحوّل قيمة العبادة من حالة اعتقاد قلبية مبهمة الأبعاد ومن كونها تصرفا تعبديا اعتياديا ومظهريا إلى كونها اختيارا وإقبالا وممارسة حرة ومؤسسة على نعمة العقل والروح والوجدان، التي أمرنا الله تعلى بأن نتعبده من خلالهما أيضا.

وفي ضوء هذه الرؤية المقاصدية يفهم العقل والوجدان المسلم الترابط السري بين هذه القيم الربانية الخالدة (الرحمة- المغفرة — العتق من النار)، ويخاطب دخائل نفسه السوية، بعيدا عن الرؤية الظاهرية لفقه هذه العبادة، قائلا: إن الرحمة صفة من صفات ربنا الأساسية في الإسلام، فربنا رحمن بخلقه

---

(١) حديث «**أول شهر رمضان رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار**»، قال عنه الإمام العقيلي في الضعفاء الكبير: لا أصل له، وقال عنه الإمام الألباني في صحيح الجامع: ضعيف جداً، وقال عنه في السلسلة الضعيفة: حديث منكر، وقال عنه الشيخ أبو إسحاق الحويني: حديث باطل. وقد يكون خبرا أو أثرا أو من كلام الشرّاح سارت به ألسنة الوعاظ عبر الزمن، ولكن لا بأس من استعماله في الترغيب والوعظ والإرشاد.

رحيم بعباده. والرحمة شرط أساس لاستمرار الحياة السوية والطبيعية بين أفراد الجماعة والمجتمع، وهي أرضية ومناخ وبيئة الغفران والتسامح والصفاء الوجداني والقلبي والسلوكي بين الجماعة المسلمة، ونتيجتهما المنطقية هي: تحصيل الرضى الرباني بالعتق من النار.

ولا ريب أن هذا بعض أسرار الفقه المقاصدي لإدراك جوهر هذه العبادة المتميزة؛ لأن الفقه المقاصدي لجوهر ومعنى ومقصد العبادة، هو الذي يحوِّلُ ويترجم ويحرك الأحكام العملية التكليفية، التي يضطلع بها المكلف، إلى طاقة فعالة تسير وترقى به نحو الكمال، الذي ارتضاه له الله سبحانه وتعالى يوم خلقه وفطره على ملة وشريعة الإسلام؛ ولأنه في غياب إدراك المقصد تتحول العبادة إلى مجرد صورة باهتة بلا معنى ولا حقيقة لها.

ومن هنا تتولد في عقل ووجدان المكلف كتل من الطاقة الخلاقة لفقه جوهر العبادة، وهو الذي تتأبى وتستعصي وتستغلق عنه بعض أو الكثير من العقول أحيانا وأزمانا ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء:٨٥)، ليبقى العقل والوجدان والروح السليمة في حركة عملية وحالة موارٍ ونشدان دائم ومستمر للكشف عن بعض الأسرار والحقائق، التي تأبَّتْ عن من سبقنا لحكمة لا يعلمها إلا ربنا سبحانه وتعالى، ولربما ادخر لنا كشف أجزاء من أسرارها، وسيترك لمن سيأتي بعدنا الكشف عن أسرار أخرى حتى يطوي السماء كطي السجل للكتب.

وبمثل هذه المحادثة السرية الذاتية العقلية التعبدية الذوقية، في مكامن النفس المُخبتة والتي تخرج بالعبادة من جانبها الشكلي الفقهي الظاهري والطفولي، تروح العبادة بل تغدو وتنطلق إشعاعاتها غير المرئية نحو تفعيل جانبها وجوهرها المقاصدي الموكول بها في نفسية وجسد وعقل وقلب المتعبد، ما يعطي بدوره النفسَ الإنسانية دورها وفاعليتها الاجتماعية المنتظرة منها؛ لأن أي عبادة نمارسها ونؤديها من غير استبطان واستكشاف بعض ما جاد به المولى سبحانه وتعالى علينا من أسرارها وحقائقها المقصودة، تصبح مجرد حركات وتمتمات ووظيفة مهدرة المقصد الروحي والعقلي والاجتماعي.. ويصدق هذا توجيهه، عليه الصلاة والسلام «**رُبَّ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ، وَرُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ**»[1]، وقوله: «**فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ**»[2]، وغيرها من الأدلة الدالة على ضرورة استبصار روح وجوهر العبادة، فلا قيمة للشكل إذا اختل وفُقِدَ الروح والمضمون.

وينصرف عقل ووجدان وقلب المسلم الصائم، وهو يستمد مستواه وقيمته من ممارسة أدائه العقلاني السليم والمطلوب شرعيا لتعاليم الدين، نحو جوهرية ومقصدية الحالات بفقه مقاصدي يرتقي بالعبادة إلى مصاف وقمم الممارسات الرشيدة والواعية، فيحاول في دخائل نفسه البحث عن حقيقة وماهية قيمة

---

(١) أخرجه البيهقي، السنن الكبرى، كتاب الصيام، باب الصائم ينزه صيامه عن اللغط والمشاتمة.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم.

(الرحمة)، ما يُفضي في أعماق فكره وروحه منطقيا بأن: التراحم والرحمة بين المسلمين في التعاون فيما بينهم في العشر الأوائل يساعدهم ويعينهم على تأدية هذه العبادة الشاقة، وسيفضي بهم -لا محالة- إلى خلق جو وفضاء من الرحمة فيما بينهم، وهذه المرحمة المُظَلِّلَةِ لشبكة علاقاتهم ستقودهم بدورها نحو مغفرتين اثنتين، إحداهما بشرية فيما بينهم وهي مهمة في تنمية وترقية شبكة العلاقات الاجتماعية السوية والبانية والمتكاملة بينهم، والثانية مغفرة ربانية تتنزل عليهم من لدن رب العزة الرحمن الرحيم، فتحل بهم السكينة والوقار، وهي بدورها ستوصلهم نحو ربهم ليعتق رقابهم من نار الدنيا وجحيم فساد شبكة علاقاتها الاجتماعية، وهي الطريق الصحيح والمباشر لاستحقاق جنة ربهم الراضي عنهم، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (الأعراف: ٩٦).

فأي عبادة تفقد بعدها المقاصدي لدى المتعبد ستخمد وستتحول إلى مجرد طقوس فارغة تُؤدى فقط؛ لأن إدراك المقصد من العبادة هو الضابط والمحدد الأساس لتوجه وصوابية التدين والتعبد الصحيح والسليم، وهو الذي يُحوّل طاقات ومواهب الإنسان الكامنة إلى فعل وسلوك مدني وحضاري يتجلى في شبكة العلاقات الاجتماعية السوية، وفي حركة العمران أيضا.

وأي أمة أو حضارة لا ترى في ما تمارسه من طقوس تعبدية جدوى وروحا حتما سيفضي بالكثير من معتنقيها إلى حالات الملل والسآمة، وستترك في

لحظة ما إنفاق وتسخير هذه الجهود والأوقات المهدرة والمبذولة فيما لا ينفع ولا يجدي بحسب ظنها، وهو الأمر الذي أدى بأتباع الكثير من الأديان إلى ترك ديانتهم والتحول نحو الإسلام، بعد رحلة معرفية وروحية شاقة وطويلة للدخول في الإسلام بعد الاطمئنان إلى تعاليمه وطقوسه التعبدية، والمهم عندي: كيف نحافظ على هذا المنجز الدعوي والحضاري؟

وأي عبادة تُمارس بعيدا عن الجوهر المقاصدي لروح الدين والعبادة نفسها، ستتحول إلى مجرد فكرة سلبية مثبِّطة عوض أن تكون فكرة إيجابية محركة، وستؤدي إلى ممارسة تدين مغشوش ومشوهٍ ومعطوب أيضا نظريا وواقعيا، وستحوِّل -لا محالة- معتنقيها إلى مجرد كائنات أنانية تجري وتتزاحم من أجل الوقوف في الصف الأول للصلاة ولو على حساب النظام الاجتماعي والحشمة والوقار والخشوع ومزاحمة الآخرين، بل طردهم من الصف الأول بحجج تخلفية، كما هو حال الملايين من مصلينا، الذين يعتقدون الفهم الظاهري للتبكير للصلاة ولقيمة الصف الأول، فكم من مصلٍ في الصف الأول ليس له من صلاته سوى العشر أو الثمن أو لا شيء، كما جاء في الحديث والأثر؛ ذلك أن جوهر العبادة اجتماعي قبل أن يكون فرديا، وما تهذيب الفرد إلاّ لخلق عملية وحالة انسجام جمعية وجماعية واجتماعية فاضلة في الأمة، كما كان حال الجماعة المسلمة الأولى.

وهنا واجب على كل داعية ومدعوٍ - بفعل تأثيرات الخطاب الدعوي الرصين- أن يُسائِلَ نفسه قائلا: هل بالفعل خرجتُ من مدرسة رمضان وأنا

أحمل هذه الإجازات الثلاث؟ وهل بالفعل نلتها عن استحقاق؟ وهل بالفعل كان الدين والعبادة بالنسبة لي قوة روحية فجَّرتْ طاقاتي وأججت فاعليتي؟ هل بالفعل بعثتْ عبادة الصيام فيَّ روح النشاط وارتقت بذاتي روحا وظاهرا؟ هل بالفعل حاولت الارتقاء إلى سلم الكمال، الذي أراده لي رب العزة من ممارستي لهذه العبادة؟

جواب هذا سهل وواضح وبيِّنٌ في حركة الأمة المسلمة في مختلف ميادين الحياة والمدنية والحضارة، وفي مدى مساهمتها في هداية البشرية الضالة.. وهكذا ينحو في قراءاته وصياغاته لسائر الموضوعات والأحكام والتوجيهات والأوامر والنواهي الشرعية.

وهنا يكون الداعية قد وضع اللمسات العلمية والمعرفية والفكرية والمنهجية والفنية والتقنية على خطابه الدعوي، الذي سيتأكد من نجاحه بعد إلقائه وتوجيهه لجمهور المدعوين، وذلك عبر طرق قياس الأثر وردة الفعل، بالبحث الميداني من جهة وانتقاء العينات ودراستها، أو بطرق القياس السلوكية الأخرى من جهة أخرى[1].

---

(١) هذا أنموذج مقترح، ورؤية وتصورية من خلال المنهج الحدسي التخميني في حالة وعى الداعية أبعاد المعارف الواقعية والمقاصدية ومحل نزول النص، وكيفيات صناعة تفكير مقاصدي وواقعي حيال النظرة لتلك العبادات، ويمكن للداعية أن ينسج على منواله، أو لربما ينتج ما هو أفضل منه بكثير وهو يتناول سائر الفرائض والواجبات والأحكام الشرعية الدينية (التوحيد، الطهارة، الصلاة، الزكاة، الحج، الصدقة الصيد والذكاة، الاعتكاف، البيوع، أحكام الأسرة وتوابعها، السياسة الشرعية، آداب وأخلاق وثقافة الإسلام..).

المبحث الرابع

علم المقاصد وفقه الواقع قيمة مركزية مؤثرة في أصناف وفئات المدعوين

(حقيقيين.. مُستقبلين.. مرتقبين.. متشككين.. مناوئين)

وبعد أن قدمنا رؤيتنا ومقاربتنا للقراءة التطبيقية الدعوية لخطاب دعوي يخص عبادة الصيام، وهو – من حيث العرض والمنهج– صنو عرض وتوجيه سائر العبادات والفرائض والواجبات الأخرى، مع فوارق جنس ومكون تلك العبادة أو الفريضة المخصوصة العينية أو الكفائية أو العامة: (التوحيد والذكر والشكر، الصلاة، الحج، الزكاة، العمل، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، القراءة...) والتي تبدو لنا – حسب رؤيتنا المتواضعة– أنها ناجحة أو قريبة منها، فإننا سننتقل في هذا المبحث لتناول قيمة ومكانة وأهمية علم المقاصد وفقه الواقع ومحل التنزيل في أصناف المدعوين، عبر المطالب الثلاثة الآتية:

١ – المطلب الأول: أصناف المدعوين وحقوقهم.

٢ – المطلب الثاني: علم المقاصد وفقه الواقع قيمة مركزية مؤثرة في أصناف وفئات المدعوين.

٣– المطلب الثالث: علم المقاصد وفقه الواقع قيمة مركزية مؤثرة في أصناف وفئات المدعوين (حقيقيين.. مُستقبلين.. مرتقبين.. متشككين.. مناوئين).

المطلب الأول

أصناف المدعوين وحقوقهم

المدعوون ثلاثة أنواع رئيسة، تتفرع عنهم أصناف وفئات مختلفة من حيث: السن والجنس والكيان الجغرافي والسياسي، ومن حيث درجة التدين والالتزام بالتعاليم والقيم الدينية، نظريا وسلوكيا، ومن حيث المستوى الثقافي والفكري والاجتماعي والاقتصادي، ومن حيث فاعلية التلقي والصدود، والتعامل السلبي أو الإيجابي مع الرسائل والمضامين الدعوية الإسلامية.. وهذه الأنواع الثلاثة هي[1]:

– أولاً: أصناف المدعوين:

١ – أصحاب الفطر السوية.

٢ – أصحاب الفطر المدخونة.

٣ – قوى المناوأة والاستكبار الكيدية الداخلية والتآمرية الخارجية.

وبهذا التقسيم يكون المدعوون قد تشكلوا بوضوح وفق مستويات الفطرة، التي فطر الله الناس عليها، بحيث ينضوي تحت كل نوع من هذه الأنواع

---

(١) اهتدينا إلى هذا التقسيم تأسيسا على منهج القرآن في تقسيم أنواع البشر: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (فاطر:٣٢)، لكي نتجنب الوقوع في تقسيمات المناهج المادية، التي تقسم بالغنى والفقر، والقوة والضعف، والجبروت والذل، والكبر والصغر.. ونحوها.

مجموعة من الأصناف والفئات المدعوة: السوية الفطرة: والمدخونة الفطرة: والفاسدة الفطرة.

١ – أصحاب الفطر السوية:

والمدعوون من هذا النوع أصناف عديدة من حيث: السن والجنس والمكانة، والكيان السياسي والاجتماعي، ومن حيث المستوى الفكري والعلمي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي؛ لأن الفوارق المادية والاجتماعية والسياسية والعلمية والثقافية ليست هي معيار التفريق بين المدعوين في المنهجية التصنيفية الإسلامية، إذ التفريق قائم بالأساس بين جمهور المدعوين في بنية التصور الإسلامي على أسس وقواعد الانتماء والولاء العقدي الصحيح لله رب العالمين كما بين لنا ذلك رسوله الكريم محمد، عليه الصلاة والسلام.

فقد قص القرآن الكريم علينا الكثير من النماذج المؤمنة من الرجال والنساء، التي فضلت الجنوح إلى عالم الهدى والرشاد، واستحسنت الإخبات إلى عالم الرضوان والسكينة، وآثرت الانضواء تحت ظلال الفطرة السوية بالرغم من عفونة وقساوة البيئة والمناخ الديني، وأسن الظروف المحيطة بهم، كحال امرأة الطاغية فرعون المؤمنة، التي قدمها القرآن الكريم كمضرب مثل للمرأة المؤمنة – المتحدية لتناقضات واقعها وفساد ظروفها المحيطة بها– إلى يوم الدين: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (التحريم:١١)، على عكس امرأتي أنبياء الله نوح ولوط، عليهما السلام،

اللتين كانتا تعيشان في ظلال بيت النبوة الطاهر، المفعم بالفطرة السوية والحياة الراشدة، لكنهما خانتا أمانة مكانة بيت النبوة فقدمهما المولى تبارك وتعالى كمضربي مثل للرافضين لمنهج الفطرة السوية بالرغم من توفر مناخ الهدى والرشاد الملائم، يقول الله تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ (التحريم:١٠).

كما قص علينا القرآن الكريم أيضا نموذجاً لرجل توفر له مناخ الحياة الطيبة في ظل الفطرة السوية، ولكنه آثر التمتع بخشاش الأرض بغير منهج الله في الأرض: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف:١٧٥-١٧٦).

كما قدم لنا الكثير من الأمثال عن عالم البشر ونماذجه، وحثنا على تفهمها والتعمق في تدبرها، إذ قال: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (العنكبوت:٤٣).

ويشكل هذا النوع من المدعوين الطبقة الراقية جدا، والخميرة الصالحة لأي مشروع نهضوي دعوي، حيث يجتمع في هذا النوع المتميز من التجمعات الإنسانية: النقاء العقدي والإيماني، والصفاء التصوري، والاستبصار العقلي،

والسمو الوجداني، والاهتداء السلوكي، والهدى العاطفي، والقصد الرباني، منطلقا وممارسة ووسيلة وغاية.

لذلك يحتاج هذا النوع السوي من المدعوين إلى نوعية راقية ورفيعة من مضامين وأساليب الخطاب الدعوي الأصيل والثابت والعصري المتجدد، وإلى نوعية راقية ومتميزة من الدعاة المتمكنين من فهم وتحليل أدق وأعمق مقاصد المنظومة التشريعية الإسلامية بكلياتها وفروعياتها، القادرين على صناعة خطاب دعوي يستجيب لرحابة وجدانهم المفعم بالإيمان، وأصاله عقلهم المتدبر لمعاني القرآن، ونفاذة تصورهم المحلق حبا وشوقا وحدبا على مستقبل الإسلام.

وإذا توفر لهذا النوع من المدعوين مقومات وعوامل التوجيه الدعوي السوي والفاعل، فإنه سيشكل بدوره أيضا منارات استقطاب دعوية ناجحة، وهوائيات إرشادية شارحة ومفصلة ومحلله ومؤثرة في محور محيطه الديمغرافي المحلي والجهوي والوطني، ولربما الإقليمي أيضا، على مبدأ القرآن العظيم: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝٧٤﴾ (الفرقان: ٧٤).

ويتوزع هذا النوع السوي الفطرة اليوم في مختلف بقاع الأرض، وبين سائر الأمم، ويضم مختلف القوى الإسلامية الفاعلة في عوالم: السياسة والمال والاقتصاد والتجارة والإعلام والعلم والفكر والأدب والفن.

كما يشكل هذا النوع السوي الفطرة أيضا رأس الحربة الذائدة عن الإسلام والمسلمين في مختلف أنحاء المعمورة، وهم الذين عناهم الله تعالى بقوله: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي

ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ (هود:١١٦)[١].

٢ – أصحاب الفطر المدخونة:

والمدعـــوون مـن هـذا النـوع أصـناف عديـدة مـن حيـث السـن والجنس والكيـان السـياسي والاجتماعي، ومـن حيـث مستوى التدين والالتزام بشعائر وتعـاليم الـدين، نظريـا وعمليـا، ومـن حيـث المسـتوى الفكـري والثقـافي والاجتماعي والاقتصادي.

وهـذا النـوع مـن المـدعوين خاضـع لتنـازع تيـاري الخـير والشـر، اللـذين يتوجهان إليه عبر رسائلهما ومضامينهما ووسائلهما، فيميد تارة تحت تأثيرات سيول التـدفق الخيرية، وتـارة ينصـاع لـدواعي ونـوازع الإبليسـية، وبالتـالي ينفلـت مـن ضـوابط الخيريـة الإسـلامية، فيـداخل فطرتـه شـيء مـن الـدخن الشـيطاني المتبـاين القـدر، فيصبح من المؤمنين المسلمين المطبقين لبعض تعاليم الإسلام، ومن المتكاسلين عن تطبيق بعضها الآخر، أو من التاركين لأركان تطبيقية كثيرة منه، ويشكل هذا النوع من المدعوين معظم المسلمين من سكان المعمورة من الناطقين بشهادة التوحيد.

وقد قص القرآن الكريم أمثلة عن هذا النوع من المدعوين ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ

---

(١) انظر: خان، وحيد الدين، حقيقة الحج، ترجمة: خان، ظفر الإسلام، دار الصحوة للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٧٨م.

وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ... ﴾ (النحل:٣٦-٣٧).

كما نقلت لنا كتب السنة النبوية أمثلة عن هذا النوع من المدعوين، كبعض الصحابة المشاركين في حادثة الإفك، من أمثال مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ، وحسان بن ثابت الأنصاري، أو من مثل الثلاثة الذين تخلفوا في غزوة العسرة، أو كبعض المرجفين في غزوة حنين، وأصحاب مقولة: «أَلَا بَطَلَ السِّحْرُ الْيَوْمَ» و«قد غلبت خيل اللات خيل الله» من حديثي العهد بالإسلام من فئة المؤلفة قلوبهم(١).

ويشكل هذا النوع من المدعوين الطبقة العظمى من المسلمين اليوم، حيث يجتمع فيه الدخن العقدي من جراء فساد كثير من أركان إيمانه، ويفتقد إلى الصفاء التصوري نتيجة اختلال في موازينه ومعاييره وقيمه الروحية، ويعدم فاعلية الاستبصار العقلي، نتيجة اختلاط المشاهد والمرئيات الوثنية الواردة عليه من سيولات التدفق الإعلامي والثقافي الوثني المهيمنة على العالم كله، وبخاصة

(١) انظر: ابن كثير، عبد الله الدمشقي (٧٧٤هـ)، السيرة النبوية، ج٣، ص٣٠٤ و٦٣٥، وج٤، ص٨، وما بعدها؛ وغيره من كتب السيرة كسيرة ابن هشام الأنصاري (ت٢١٣هـ)؛ والحلبي، أبو الفرج نور الدين بن برهان الدين على بن إبراهيم بن أحمد، السيرة الحلبية: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، دار الغزالي، دمشق، الطبعة الأولى، ١٣٩٤هـ؛ وكتب الصحاح والسنن والمسانيد والمستدركات والسير والطبقات والأعلام والرجال.

جماهير المسلمين، كما يخسر حالات الصفاء وفيوضات السمو الوجداني الغامرة للنفس السوية، ويضل عن منارات الاهتداء السلوكي والعلائقي الاجتماعي، بسبب حالات الاستهواء والانصياع الواردة عليه من الأنماط والسلوكات والأخلاق الثقافية والاجتماعية الوثنية المؤثرة فيه، ويحرم وجدانيا وعاطفيا وروحيا من مدارج الهدى والسكن العاطفي والطمأنينة القلبية العامرة للقلوب السوية، ويتيه جهلا أو أشرًا عن دوافع وغايات القصد السوي، منطلقا وممارسة ووسيلة وغاية.

كما يحتاج هذا النوع المدخون الفطرة من جمهور المدعوين إلى نوعية راقية ورفيعة وحذرة من مضامين وأساليب الخطاب الدعوي الحذر والهادف، وغير القابل للتأويل الخاطىء أو الفهم السلبي، وإلى نوعية راقية ومتميزة من الدعاة الحذرين، والمتمكنين من فهم هذه النوعية والشريحة المريضة، روحيا ونفسيا وعقديا وسلوكيا.

كما تحتاج أيضا إلى الدعاة الحذرين والمتمكنين من فهم وتحليل مقاصد المنظومة التشريعية الإسلامية بسائر كلياتها وفروعياتها، القادرين على صناعة خطاب دعوي إسلامي متوازن، يستجيب لوسوسات الدخن المعشعش في وجدانهم المضطرب الإيمان، ولعقلهم الفاقد لأصالة التدبر الحقيقي والعميق لمعاني القرآن والسنة، وعدم وعيهم للخطر المحدق بمستقبل الإسلام.

وإذا توفر لهذا النوع من المدعوين — المتسربين من الإسلام بفعل قوى وعوامل التجهيل والتعمية الوثنية— مقومات وعوامل التوجيه الدعوي السوي،

والفاعل المؤثر، فإنه سيزيد – لا محالة – في تعداد أصحاب الفطر السوية من جماهير المدعوين، وسيشكل بدوره مساحات ولاء توحيدية جديدة وناجحة لعالم الدعوة الإسلامية، وسيوسع -بلا شك– بؤر الإيمان الهادية والمؤثرة في محيطه الديمغرافي المحلي والجهوي والوطني على مبدأ القرآن العظيم القائل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴾ (محمد:١٢).

ويتوزع هذا النوع من المدعوين المدخوني الفطرة اليوم في مختلف بقاع الأرض، وهو موجود بين سائر المجتمعات والأمم الإسلامية وغير الإسلامية، ويضم الكثير من القوى والطاقات المحسوبة على الإسلام، والعاملة في تيار الثقافات الأخرى، والفاعلة سلبا في عوالم: السياسة والإدارة والاقتصاد والمال والتجارة والإعلام والعلم والفكر والأدب والفن، وذلك لافتقاده الصحوة الدعوية الدائمة، واليقظة الدينية الراشدة التي تنتشله بوعي من غيابات التضليل المتردي فيه، والمتدفق عليه من سيول البث الإعلامي والاتصالي والثقافي يوميا في حالات وعيه النادرة وفي حالات غيبوبته التصورية الدائمة.

كما يشكل هذا النوع المدخون الفطرة أيضا رأس الحربة الموجهة في صدر الإسلام والمسلمين في مختلف أنحاء المعمورة، وبخاصة في بعض البلاد والمجتمعات المحسوبة على الدين الإسلامي.. وهذه الفئة بحاجة أكيدة وماسة إلى عناية الدعاة والعلماء والفقهاء والمتخصصين في الشريعة كي يتوجهوا إليها مباشرة بمختلف أساليب ووسائل ومناهج الخطاب الدعوي، وهي بحاجة ملحة

وسريعة أيضا إلى سيولات دعوية هادفة ومتميزة ومؤثرة بهدف انتشالها من رغام الوثنيات التصورية والفكرية والعقدية المحلية والعالمية.

وهذا النوع من المدعوين يجب أن يحظى بالعناية الدعوية الكافية من قبل جمهور الدعاة والعلماء والفقهاء لاعتبارات عديدة، أهمها مشروعية وفرضية الدعوة، والتبليغ لعقيدة التوحيد، والعمل على توسيع بؤر الإيمان بالله في الأرض.

٣ – قوى المناوأة والاستكبار:

هذا هو النوع الثالث من جمهور المدعوين، وهو – في الحقيقة– ليس من جمهور المدعوين الحقيقيين؛ لأنه يشكل طليعة القيادة الكيدية ورأس الحربة التآمرية على الدعوة الإسلامية وعلى الوجود الإسلامي وعلى سائر المسلمين، ومن باب التبليغ الدعوي، الذي كلف الله به الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل يتوجه إليهم الدعاة برسالة الإسلام الدعوية؛ لأن هذا النوع من المناوئين الأشداء، يتوزع أدوار مقارعة الإسلام والدعوة الإسلامية، داخليا وخارجيا، في تناغم وانسجام تهديمي.

وقد تفرع عن هذه القوى المضللة سائر الحركات الهدامة الفردية والجمعية، التي شهدها التاريخ الإسلامي والعالمي كسائر فرق الباطنية، والمزدكية، والمانوية، والزرادشتية، والكنفوشيسية، والشنتوية، والبراهمية الهندوسية، والبوذية، والفرق الغنوصية الباطنية الضالة: البابية والبهائية

والقاديانية الأحمدية والماسونية، والصهيونية العالمية، والليبيرالية المتوحشة، وتيارات العبثية واللامعقول، وسائر حركات ومؤسسات التبشير والتنصير العالمي؛ لأن «الاستعمار قد يتطور ويبدل أزياءه وفق الأحوال، التي تلائمه، ولكنه باق ما بقي حق ضعيف، وباطل قوي.. ومن المهم أن نعرف التغير الذي يطرأ على أشكال الاستعمار، إنه ليس صحوة ضمير، ولا رجعة تائب.. إنه تنازع الأقوياء على السيطرة، وحذر بعضهم من البعض الآخر.. ذلك كله جعل المستعمرين يلجأون إلى الحيلة، ويفكرون أن يحتلوا الشعوب بأسلوب بعد أن انكشف أسلوب..»[1].

وانتصبت قوى الكيد والتآمر والمناوأة والاستكبار في العصر الحديث تناجز الدعوة الإسلامية العداء كالمستغربين والمستشرقين، ممن مردوا على كل أساليب وفنون التفتين والتهديم الداخلي، وتشيطنوا في مخابر الكيد والتآمر العالمي، ليشوشوا على الدعاة والأمة طريق ربهم[2].

---

(١) انظر: الغزالي، محمد، الإسلام والأوضاع الاقتصادية، مكتبة رحاب، الجزائر، دون طبعة، دون تاريخ، ص١٠٤ – ١٠٥.

(٢) انظر: حسنه، عمر عبيد، مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، دار الهدى، قسنطينة، الجزائر، دون طبعة ودون تاريخ، ص٣١ و٣٣ و٤٥ و٤٦؛ والغزالي، محمد، قذائف الحق، دار الشهاب، باتنة، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص١٤٦. والغزالي، محمد، الإسلام والأوضاع الاقتصادية، مرجع سابق، ص١٠٢؛ وبوعود، أحمد، فقه الواقع أصول وضوابط، كتاب الأمة، مرجع سابق؛ وغيرهم.

وقد لعبت هذه القوى الكيدية دورها في استبعاد وتعطيل وشل كل الطاقات الدعوية المبدعة، مستبيحة ساحة الأمة الإسلامية، وفاضَّةً بيضتها لتتعرض لكل أشكال التهديم الداخلي[1].

وفي هذا الصدد يقول الأستاذ محمد قطب، رحمه الله، مبينا أصناف وفئات الكائدين بالإسلام والمسلمين: «أما الناس فهم فئات شتى في عداوتهم للإسلام، فأما المثقفون: فهم خلاصة الكيد الخبيث، الذي وضعته الصليبية الصهيونية للقضاء على الإسلام، فهؤلاء المثقفون هم الذين رباهم الاستعمار في مدارس الحكومة، التي أقامها تحت سمعه وبصره لتنفذ سياسة معينة، تؤدي إلى تخريج أجيال من المسلمين لا يعرفون شيئا عن حقيقة الإسلام، ويعرفون بدلا منها شبهات تحوم في نفوسهم حول هذا الدين...»[2].

والحقيقة أن هذه القوى الكيدية الداخلية المناوئة للإسلام والمسلمين بحاجة إلى توجه وتوجيه دعوي خاص، يتوجه إليها من قبل المؤسسات

---

(١) انظر: الندوي، أبو الحسن علي، روائع من أدب الدعوة في القرآن والسنة، دار القلم، الكويت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ، ص٥٨ – ٦٢؛ وانظر أيضا: يوسف العظم، رحلة الضياع للإعلام العربي المعاصر، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الرياض الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص٦٥ – ٧٤؛ والغزالي، محمد، حصاد الغرور، دار ريحانة، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ /٢٠٠٠م، ص٣٨ –٤٠؛ وغيرهم من المفكرين.

(٢) انظر: قطب، محمد، جاهلية القرن العشرين، ص ٣٣٩ –٣٤٨؛ ١٦٩.

والمنظمات والهيئات والمراكز الدعوية الإسلامية المحلية والعالمية، حيث لا يكفي جهد الدعاة -على كثرته- لوحدهم، بالإضافة إلى قلة زادهم المادي والتقني والوسائلي.

ثم إن قوى المناوأة والكيد الداخلية والخارجية بحاجة إلى جهود الجمع الغفير من المصلحين والدعاة والعلماء والفقهاء والهيئات والمنظمات والمراكز الدعوية الإسلامية حتى تؤتي الدعوة الإسلامية ثمارها، وتعرفهم بالدين الإسلامي وبطروحاته الخيرية والنبيلة على الإنسانية المفلسة، والمضللة بوثنيات وتعثرات العقل والهوى الضال، وتسلك مسارها السوي، وتصل إليهم ثم إلى عموم المدعوين.

- ثانياً: حقوق المدعوين:

لجمهور المدعوين - الحقيقيين والمرتقبين والمستقبلين محليا ووطنيا وإقليميا وعالميا- حقوق شرعية أكيدة وعديدة على الداعية المسلم أو على الهيئة الدعوية الإسلامية، وعليه مراعاتها واحترامها وتطبيقها بدقة خلال ممارسته الدعوية، وهذه الحقوق الدعوية هي:

١ - دعوتهم إلى رسالة الإسلام كما أنزلها الله تعالى في القرآن الكريم على نبيه محمد ﷺ وكما طبقها رسوله الكريم مع الصحابة الكرام.

٢ - دعوتهم إلى رسالة الإسلام بكامل إرادتهم، وفي جو من الحرية والوضوح.

٣ – دعوتهم إلى رسالة الإسلام بوسائل الاتصال والإعلام والتبليغ المشروعة.

٤ – دعوتهم إلى رسالة الإسلام بأساليب العرض المنهجي والمرحلي وبمختلف أساليب الحجاج العقلي، وبمختلف أدوات التجييش الوجداني بالترغيب والترهيب.

٥ – دعوتهم إلى رسالة الإسلام بأساليب الحكمة والموعظة الحسنة، ومراعاة خصوصياتهم وثقافتهم وتراثهم وقيمهم ومعاييرهم.

٦ – دعوتهم إلى رسالة الإسلام بالقدوة العملية، لا القولية فقط[1].

وإذا وعى الداعية الإسلامي أنواع المدعوين وأصنافهم ومؤسساتهم وثوابتهم ومتغيراتهم التأثيرية المختلفة، أمكنه بالفعل ولوج صفوفهم برسائله ومضامينه الدعوية الإسلامية المؤثرة، وأمكنه نقلهم إلى حالة البلاغ، فالمعرفة، فالتقبل، فالتعايش مع الإسلام والمسلمين على أقل تقدير، تمهيدا لنقل بعضهم إلى حظيرة الإسلام كعامة جمهور المسلمين، وليصبحوا بعون الله تعالى وفضله ثم بجهود الدعاة إلى دعاة محليين في أقوامهم إلى دين الإسلام.

(١) انظر: الندوي، أبو الحسن علي، روائع من أدب الدعوة في القرآن والسنة، ص١٩-٣٧.

المطلب الثاني

علم المقاصد وفقه الواقع

قيمة مركزية مؤثرة في أصناف وفئات المدعوين

تبينا فيما سبق أن المدعوين هم أحد الأركان الرئيسة في العملية الدعوية، وأن المدعين أصناف عديدة ومتنوعة، يختلفون باعتبار الفطرة والسن والجنس والبيئة والمكان والحال والزمان والمناخ والمستوى الثقافي والعلمي والعقلي والاقتصادي والاجتماعي والتربوي والأخلاقي والمهني واللغوي والعقدي والتعبدي والفطري[1].

والمدعوون يتباينون فيما بينهم في حالات تلقي وتقبل واتباع الخطاب الدعوي والتفاعل معه دون غيره، وذلك عائد لأسباب عديدة، منها ما يتعلق بمكونات وخصائص المدعوين أنفسهم، ومنها ما يخص الخطاب الدعوي نفسه، ومنها ما يتعلق بالدعاة والجهات المتخصصة بصناعة وتوجيه الخطاب الدعوي، ويتعلق أساسا بمستواها ورؤيتها وبمدى فهمها وإحاطتها بنفسيات وعقول ومدارك المدعوين من جهة، وبمدى فهمها وتمكنها من علمي المقاصد وفقه الواقع ومحل التنزيل.

---

(١) انظر: عيساوي، أحمد محمود، منهجية البحث في عملية الاتصال الدعوي، مرجع سابق، ص١٧١-١٧٣؛ ومدخل إلى علم الدعوة، مرجع سابق، ص٧٨.

ولعلنا نقدم نماذج دعوية نبوية لخطاب نبوي عام مع عموم المخاطبين والمدعوين، ثم نردفه بنماذج دعوية نبوية لخطاب نبوي خاص مع خصوص أصحابه ومدعويه.

– أولاً: تفاعلية الخطاب والمدعوين:

ينقسم المدعوون أيضا إلى مجموعة من الأصناف، ويختلفون من حيث الاستجابة وقبول الدعوة، فمنهم المدعوون الحقيقيون، والمستقبلون، والمرتقبون، والمتشككون، والمناوئون، ولكل منهم خطابه الدعوي الخاص به والذي يجب أن يحذقه الداعية، منطلقا وحكمة ومقصدا، وإلاّ لضاعت جهوده سدى، ولم تؤدِ مطلوبها، وتُقَصِّرُ عن تحقيق أهدافها ونتائجها المرجوة، لقوله ﷺ لمعاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري، رضي الله عنهما، حين بعثهما إلى اليمن: «**يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا**»[1].

وعلى الداعية الحصيف أن يدرك أن جمهور المدعوين أصناف عديدة، فثمة المنافقون والذين في قلوبهم مرض، والذين مردوا على النفاق، وثمة الأعراب، وثمة من لا يعرفون الكتاب إلاّ أماني، وثمة من خلط عملا صالحا وآخر سيئا، وثمة من استهوته الشياطين، وثمة من استهوته شهوة نفسه وهواه، وثمة من أخذته العزة بالإثم، وثمة من كابر واندفع لإغواء الأمة، وثمة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب وعقوبة من عصى إمامه، ج٤، ص٦٥، حديث رقم ٣٠٣٨.

من تخصص في الكيد للشريعة الإسلامية، وثمة من ناصب القرآن العداء، وثمة من تخصص في الطعن في نبي الإسلام وصحابته وزوجاته، وثمة من تخصص في الكيد والنيل من السنة ومن كتبها وصحاحها وسننها ومسانيدها.. ويمكننا أن نصنفهم ضمن الأسر الدعوية الآتية: (المدعوين الحقيقيين، والمستقبلين، والمرتقبين، والمتشككين، والمناوئين).

وفي هذا الصدد يؤكد إمام الحرمين «أبو المعالي الجويني» هذه الحقيقة المقاصدية والدعوية معا بقوله: «ومن لم يتفطن لوقوع المقاصد في الأوامر والنواهي فليس على بصيرة في وضع الشريعة»[1]، وهو ما يجب أن يحذقه الدعاة أثناء تواصلهم الدعوي مع جمهور المدعوين، فيعرفوا مقاصد القرآن وأنواعها، والمتوجهة أساسا إلى إصلاح الإنسان، بدءاً من قلبه وروحه وعقيدته وإيمانه، وحاجته إلى التدين والتعبد والانصياع لأحكام الشرع الحنيف لاستمراره وبقائه وصلاح حاله ومعاشه[2].

ولكل صنف من هؤلاء المدعوين خطاب خاص يليق به لوحده دون غيره، يجب أن تراعيه الجهة القائمة بالخطاب، وقد يشترك معه غيره في ذاك

---

(١) الجويني، أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله (ت ٤٧٨هـ)، البرهان في أصول الفقه، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج١، ص١٠١، نقلا عن حامدي، عبد الكريم، ص٢١.

(٢) انظر أيضا: محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة التاسعة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص١٨٥-١٨٧، نقلا عن حامدي، عبد الكريم، مرجع سابق ص١٢٢-١٢٤، ففيه تفصيل عن مقاصد القرآن الكريم لإصلاح الإنسان.

الخطاب إذا تشابها في الخلال والأوصاف والنفسيات والظروف التكوينية والتأسيسية والتربوية الأولى.. ومثل هذه النماذج الخطابية والدعوية ثرية في المكتبة الإسلامية وزخرت بها أفانين وروائع كتب البيان والبلاغة القرآنية والنبوية والتي تنطلق جميعها من قيم اليسر والرحمة والشفقة والتبشير والتسكين والتأليف والتوحيد، وغيرها؛ لأن المدعوين لو علموا الحق وشاهدوه وأدركوه، وقُدِّمَ لهم بتقدير واحترام لما تعنتوا ولما أعرضوا ولما عادوا الدين وتعاليمه، لقوله ﷺ لمن أراد تعنيف ذلك الأعرابي، الذي بال في المسجد: «..**فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**»[1].

وسنعرض الآن نماذج وصورا من بعض خطاباته، عليه الصلاة والسلام، لعامة المدعوين.

– ثانياً: بعض خطاباته الدعوية العامة للمدعوين:

١– إيجاز لصيانة النفس والعرض:

المأثور عن النبي، عليه الصلاة والسلام، حسن تعامله مع أصناف المدعوين، وإيجازه في الوصية حسب طلب المدعو، وتقبل النبي ﷺ هذه الجرأة نظرا لفقهه بأحوال الناس، ودرايته ﷺ بالمقصد المرجو من ذلك المدعو، فقد جاء عن الصحابي الجليل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، ج١، ص٥٤، حديث رقم (٢١٧).

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْصِنِي وَأَوْجِزْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**عَلَيْكَ بِالإِيَاسِ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَإِيَّاكَ وَالطَّمَعَ فَإِنَّهُ فَقْرٌ حَاضِرٌ، وَإِذَا صَلَّيْتَ فَصَلِّ صَلاةَ مُوَدِّعٍ، وَإِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ**»(١).

٢- معالم مشرقة تهدي الطريق:

تكون توجيهات النبي ﷺ للمدعوين باعتبار حالهم وظرفهم ودواخل نفسيتهم، ومدى علمه ومعرفته بهم، بحيث لا تتجاوز الإحالة إلى مصدر الإسلام الأول، وهو القرآن الكريم، ورأس المركله بتقوى الله ومخافته، فقد جاء عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْصِنِي.. قَالَ: «**أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّهُ رَأْسُ الأَمْرِ كُلِّهِ**».. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، زِدْنِي.. قَالَ: «**عَلَيْكَ بِتِلاوَةِ الْقُرْآنِ، وَذِكْرِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ نُورٌ لَكَ فِي الأَرْضِ، وَذُخْرٌ لَكَ فِي السَّمَاءِ**»(٢).

٣ – نهي مبين:

المعروف عن البيان النبوي فاعلية رسول الله ﷺ في تدبيج النصح ببلاغة الإيجاز البرقي في العبارة، والتلميح أحيانا والتصريح أحيانا أخرى، فقد جاء عن

---

(١) أخرجه الحاكم والبيهقي في كتاب الزهد واللفظ له وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب».

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه في حديث طويل، كِتَاب الْبِرِّ وَالإِحْسَانِ، بَاب مَا جَاءَ فِي الطَّاعَاتِ وَثَوَابِهَا.

جُرْمُوز الْهُجَيْمِيّ ﷺ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْصِنِي.. قَالَ: «**أوصِيكَ أَلا تَكُونَ لَعَّانًا**»[1].

٤- منهج ترسيخ القيمة:

الملاحظ على المنهج الدعوي النبوي سعيه الحثيث على توطين وتأكيد واحترام عالم القيم في أنفس وعقول ووجدان وسلوكات المدعوين، فعن أبي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيَّ ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**أُوصِيكُمْ بِالْجَارِ**»[2].

ومن معرض هذه الأفانين الدعوية النبوية لجمهور الصحابة المعنيين بالتوجيه النبوي الشريف، نتبين تركيز رسول الله ﷺ على بناء النفس السوية وصناعة الشخصية المسلمة المتزنة، سواءً مع قدامي الصحابة أو مع حديثي العهد بالإسلام، مخصصا لكل نوعية خطابها المؤثر والفعال فيها، بحسب مكوناتها ومداخلها.

وهذا التوجيه النبوي الشريف يكشف لنا فائدة التحكم في المعارف النفسية والاجتماعية والواقعية والبيئية لجمهور المدعوين.

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، رضي الله عنهما، أَنَّ مُعَاذَ ﷺ أَرَادَ سَفَرًا، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَوْصِنِي.. قَالَ: «**اعْبُدِ اللَّهَ لا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا**»..

---

(١) أخرجه الطبراني من رواية عُبَيْد اللَّهِ بْن هَوْذَةَ عن جرموز، وقد صححها ابن أبي حاتم وتكلم فيها غيره، ورواته ثقات، وصححه العلامة الألباني في (صحيح الترغيب).

(٢) أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق، وصححه الألباني في (صحيح الجامع).

قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، زِدْنِي.. قَالَ: «**إِذَا أَسَأْتَ فَأَحْسِنْ**».. قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، زِدْنِي.. قَالَ: «**اسْتَقِمْ، وَلْيَحْسُنْ خُلُقُكَ**»[1].

ومن هنا ننطلق لنرى المنهج النبوي الأمثل للتعامل مع كل فئة وصنف من أصناف المدعوين، ولكن قبل هذا نبين في عجالة بعضا من خطاباته الدعوية لخصوص المدعوين كأبي ذر الغفاري ﷺ وأبي هريرة ﷺ.

– ثالثاً: بعض خطاباته الدعوية لخصوص المدعوين:

أما بقية المدعوين والذين يشكلون رأس حربة الدعوة، ويُعتبرون من الدعاة المشاركين للداعية الرئيس، فهم يحتاجون إلى خطاب آخر يختلف عن عامتهم، على الرغم من اشتراكهم مع غيرهم فيه أيضا.

فهذا الصحابي الجليل أبو هريرة ﷺ يقول: «أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ بِثَلَاثٍ وَنَهَانِي عَنْ ثَلَاثٍ.. نَهَانِي عَنْ **نَقْرَةٍ كَنَقْرَةِ الدِّيكِ، وَإِقْعَاءٍ كَإِقْعَاءِ الْكَلْبِ، وَالْتِفَاتٍ كَالْتِفَاتِ الثَّعْلَبِ**»[2]، وهو خطاب خاص بصحابي من مكثري الصحابة في الرواية والصحبة.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وحسنه العلامة الألباني في «صحيح الترغيب».

(٢) أخرجه أحمد وأبو يعلى وإسناد أحمد حسن؛ ورواه ابن أبي شيبة وقال: «كإقعاء القرد»، مكان «الكلب»، وحسنه العلامة الألباني في (صحيح الترغيب والترهيب).

وصنوه الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري ﷺ إذْ يقول:

أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ بِخِصَالٍ مِنَ الْخَيْرِ.. أَوْصَانِي «**بِأَنْ لا أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي، وَأَنْ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ دُونِي.. وَأَوْصَانِي بِحُبِّ الْمَسَاكِينِ وَالدُّنُوِّ مِنْهُمْ.. وَأَوْصَانِي أَنْ أَصِلَ رَحِمِي وَإِنْ أَدْبَرَتْ.. وَأَوْصَانِي أَنْ لا أَخَافَ فِي اللَّهِ لَوْمَةَ لائِمٍ.. وَأَوْصَانِي أَنْ أَقُولَ الْحَقَّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا.. وَأَوْصَانِي أَنْ أُكْثِرَ مِنْ قَوْلِ لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ، فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ**»[1].

وهو أيضا من مكثري الرواية والصحبة لرسول الله ﷺ ومع كل هذا فقد استنصح رسول الله ﷺ، وكانت النصيحة جملة من الخصال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتربوية والأخلاقية والنفسية.

والأمر نفسه تكرر مع صحابي آخر.. والملاحظ على الخطاب النبوي أنه لم تخرج الوصايا عن القضايا والمسائل نفسها المذكورة آنفا، وذلك لعلم رسول الله ﷺ بأهمية علمي المقاصد وفقه الواقع والمحل.

فعن أَسْوَد بْن أَصْرَمَ الْمُحَارِبِيّ ﷺ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْصِنِي.. قَالَ: «**تَمْلِكُ يَدَكَ**».. قُلْتُ: فَمَاذَا أَمْلِكُ إِذَا لَمْ أَمْلِكْ يَدِي؟.. قَالَ: «**تَمْلِكُ**

---

(١) أخرجه الطبراني وابن حبان في صحيحه واللفظ له، وصححه العلامة الألباني في (صحيح الترغيب والترهيب).

لِسَانَكَ»، قَالَ: «فَمَاذَا أَمْلِكُ إِذَا لَمْ أَمْلِكْ لِسَانِي؟».. قَالَ: «**لا تَبْسُطْ يَدَكَ إِلا إِلَى خَيْرٍ، وَلا تَقُلْ بِلِسَانِكَ إِلا مَعْرُوفًا**»[1].

ومنه نتبين من خلال النماذج النبوية أن وعي الداعية للجهة المدعوة مهم جدا في صياغة وتوجيه ونجاح الخطاب الدعوي، وذلك متوقف على مدى تكوين ومستوى الدعاة في علمي المقاصد وفقه الواقع والمحل.

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني بإسناد حسن والبيهقي، وصححه العلامة الألباني في (صحيح الترغيب).

المطلب الثالث

علم المقاصد وفقه الواقع

قيمة مركزية مؤثرة في أصناف وفئات المدعوين

(حقيقيين.. مُستقبلين.. مرتقبين.. متشككين.. مناوئين)

– أولاً: أنواع المدعوين وخطاباتهم:

لكل صنف من أصناف المدعوين المذكورين آنفا مكوناته وخصائصه ومعالمه ومميزاته، التربوية والثقافية والنفسية والعقلية والوجدانية والسلوكية والأخلاقية والتواصلية والأدبية واللغوية، وبحسب تلك المكونات يتلقى ويتناغم ويتفاعل مع أي خطاب دعوي أو غيره يرد عليه.. وأي خلل أو سوء تقدير لدى الداعية أو الجهة المتخصصة في إعداد وصياغة وتوجيه الخطاب الدعوي، سيؤدي حتما إلى حالة تنافر وتضاد بينهما، فلا جمهور دعوي يتقبل ويتأثر، ولا خطاب ينفذ ويؤثر، وذلك بسبب سوء تقدير وحساب تأثير تلك المكونات في جمهور المدعوين، ولن يتأتى للداعية القدرة على السيطرة والتأثير ما لم يحذق واقع وحقيقة المحلِ والمخاطبين وواقعهم وظروفهم، ومقاصدهم المرجوة من التواجد تحت تأثير رشات وزخات الخطاب الدعوي.

وسنتبين كل صنف من تلك الأصناف وتفاعله وتناغمه مع الخطاب الدعوي، وسنجد أن جمهور المدعوين يستمع وينصت لخطاب دون خطاب،

فهذا يسمعه ويمر دون تأثير، وذاك يستمع إليه، بلهَ يُنصت إليه بروحانية وتقديس، ويتفاعل معه ويتأثر به دون سواه، نظرا لحرص الهيئة الدعوية على وضع كل الحسابات في عملية إعداد وتوجيه الخطاب، وبالتالي ينجح هذا الخطاب مع هذا الصنف من المدعوين دون غيره، ويفشل ذاك الخطاب مع أولئك لفقدانه الإحاطة المطلوبة، علميا ومنهجيا ونفسيا وواقعيا وبيئيا ومحليا.

– ثانياً: أهمية علم المقاصد وفقه الواقع في التعرف على أحوال المدعوين:

يجب على الداعية أن يراعي – منطلقا من القاعدة نفسها مقاصد وواقع ومحل تنزيل– وهو يخاطب المدعوين الحفاظ على أسرارهم وستورهم، فمن رغب أن يُحسن الإصغاء إليه فليتخلل المدعوين بالنصيحة السرية، التي قَعَّدها سيدنا نوح، عليه السلام، لما قال: ﴿ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ﴾ (نوح:٩)، فإن صنفاً من المدعوين إن نصحتهم جهارا أخذتهم العزة بالإثم، ثاني عطفه عن الاستماع أو الامتثال، بل ليكاد يذهب بعيدا ليضل عن سبيل الله[1].

ولا حرج على الداعية أن يُلقي خطابه على المدعوين جهارا إن تصامم المدعوون عن قبولها في سر أو خلوة؛ لأن عرض الخطاب الجهري أصدم لنفوسهم وأشد وقعا، ولقدرته على فضحهم وتبكيتهم وتحذيرهم من سوء العاقبة، ومن الحكمة الجمع بين الخطابين، السري والجهري، كما فعل نبي الله

(١) انظر: محمد الخضر حسين، الدعوة إلى الإصلاح، ص٢٩.

نوح عليه السلام عندما جمع بينهما، فحكى الله على لسانه قائلا: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ (نوح:٥) إلى قوله: ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ (نوح:٨-٩)[1]، لحكمة وجدانية ونفسية وتربوية وأخلاقية، وخشية ما قد يقع في نفسية المدعو من لبس وغموض وشك، فتطفئ الدعوة الجهرية جذوة الهموم النفسية، وهو من جوهر الرحمة بأنفس ومشاعر المدعوين، الذين ستضطرم قلوبهم وأعماقهم بمثل تلك التأججات النفسية، التي حرص الإسلام عليها في خطابه القرآني والنبوي.

فقد أُثر عن رسول الله ﷺ أنه كان يبدأ بالأيسر جدا، فاليسير، فالميسر، فالعزيمة، وبالمألوف والمعروف قبل الغريب المستهجن، وبالمعقول والمفهوم قبل غيره، حتى إذا تآلفت العقول والأرواح واستكانت النفوس وطلبت المزيد، انتقل ﷺ لما بعده.

وعلى هذه القاعدة المحكمة أسس رسول الإسلام ﷺ سائر خطابه ومنهجه العقدي والتعبدي والأخلاقي، فالصلاة قبل حادثتي الإسراء والمعراج

---

(١) لمزيد من التوسع انظر: عيساوي، أحمد محمود، منهج الدعوة عند أنبياء الله، ص٣٨ -٣٩، فقد قدم الباحث دراسة عن أربعة أنبياء (نوح، إبراهيم، يوسف، موسى) في مقدمتهم نبي الله نوح، عليه السلام، وبين وسائل دعوته (السرية والجهرية والليلية والنهارية والقومة والفردية والجمعية والأسرية والإشهارية والجماهيرية والترغيبية والترهيبية والجدلية والحجاجية والعقلية والوجدانية والوعظية والإرشادية والصبيرية..).

كانت ركعتين في الفجر والمغرب، ثم صارت على الوجه المعروف، وكان يُسمح فيها الكلام ثم نُهي عنه فيها وعُدَّ من مبطلاتها، وكذلك فرض الصيام والزكاة، والنهي عن الربا والخمر.. فعن أم المؤمنين السيدة عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، أنها قالت: «.. إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنْ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ لَا تَزْنُوا لَقَالُوا: لَا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا»[1].

والمدعوون هم الجهة، التي يتوجه الداعية إليها برسالته ومضامينه الدعوية، وقد تكون هذه الجهة المدعوة فردا، أو جماعة، أو مجتمعا، أو أمة، أو الإنسانية جمعاء.

وجمهور المدعوين عوالم متباينة، من حيث السن والجنس والتنشئة الاجتماعية والتربوية، ومن حيث المستوى الثقافي والاقتصادي والاجتماعي والتربوي والأخلاقي والديني، وعلى الرغم من كونهم يشكلون عوالم متمايزة فيما بينهم ، فإنهم أيضا يتنوعون ويتوزعون إلى فئات متجانسة وشرائح متعددة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، ج٦، ص١٧٩، حديث رقم ٢٢٨؛ والبخاري أيضا، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، ج٤، ص١٩١٠، حديث رقم٤٧٠٧؛ والنسائي في سننه الكبرى، ج٦، ص٤٧٧، حديث رقم١١٥٥٨.

وقد حفلت دعوات الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، التي درسناها[1] بتسليط الضوء والاهتمام الجاد بجمهور المدعوين، من حيث سنهم وجنسهم وعقيدتهم، ومستوى حياتهم الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والتربوي والأخلاقي.. كما وجدنا ذلك من خلال منهج رسول الله ﷺ الدعوي، الاهتمام بنوعية المدعوين، فكريا وعقديا ونفسيا وثقافيا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وجغرافيا.

وقد شهد العالم اليوم قيام جهات متخصصة ولجان ومعاهد تهتم بجمهور المدعوين، وتدرسهم في جميع مجالات حياتهم، ثم تقوم بتقديم خلاصات دراساتها إلى الجهات التبشيرية المعنية بهم، حتى صار معرفة جمهور المدعوين علما ينير طريق الدعاة، ويبصرهم بحقيقة الجمهور المستقبل لرسائلهم ومضامينهم الدعوية، ولم يعد عملا متروكا للمفاجآت، أو لتدخل الأقدار، أنجح أم لم ينجح؟

ولذا وجدنا رسول الله ﷺ قد توجه إلى مختلف فئات الناس، وعلى رأسها الإنسانية جمعاء، فيما يوضحه قول الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٨).

---

(١) انظر دراستنا: منهج الدعوة عند أنبياء الله، مرجع سابق.

كما توجه إلى فئة المؤمنين لوحدهم، فيما يبينه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (التوبة:١١٩) وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ (الحج:٧٧)،

كما توجه إلى قومه وعشيرته الأقربين فيما يوضحه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾ (النحل:٣٦)،

كما توجه إلى فئة دينية معينة كتوجهه إلى بني إسرائيل فيما يبينه قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ (البقرة:٤٧)،

كما توجه من قبله أنبياء الله تعالى إلى أقوامهم، فيما يبينه قوله تعالى: ﴿ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝ وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝ ﴾ (الأحقاف:٣١-٣٢).

ومن هنا وبعد أن بيّنا أنواع وخصائص المدعوين، وأهمية معرفتهم عن كثب بهدف توجيه الخطاب الخاص بهم والمناسب لهم، فإننا سننتقل لتبيين حالات وكيفيات التعامل مع تلك الأصناف المدعوة.

- ثالثاً: كيفيات التعامل مع أصناف المدعوين:

لكل صنف من أصناف المدعوين حال وواقع وظرف خاص بهم، يحتاج لخطاب دعوي مناسب لهم، يحدده ويضبطه مدى فهم الداعية لهم، كما يتقرر ويقتصر توجيهه لهم بمدى إلمامه بوظيفته الاستثنائية، التي تحتاج لمعارف ثرية في

علمي المقاصد وفقه الواقع والتنزيل، وسنسعى هنا لتبيين كيفيات التعامل مع كل صنف على حدة.

١ – المدعوون الحقيقيون[١]:

يُعد المدعوون الحقيقيون أفضل وأحسن صنف يتعامل معه الدعاة من عهد نبي الله آدم، عليه الصلاة والسلام، إلى اليوم، ويعتبر هذا الصنف خميرة وسواد الأمة، ويحتاج إلى خطاب مباشر وواضح ومختصر، نظرا لتهيؤ نفسيته وسلامة سريرته ونقاء فطرته، واستعداده لقبول الرسالة الإسلامية من أفواه وأعمال وتوجيهات الدعاة.

وقد حفل التراث الإسلامي الدعوي بأفانين الخطاب المفعم بالقيم والقواعد المقاصدية ومشتقاتها ومعارف علم فقه الواقع والمحل حيال هذا الصنف وغيره، كوصيته ﷺ في قوله لأبي هريرة رضي الله عنه .. يقول أبو هريرة: «أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ بِثَلَاثٍ: **صِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَرَكْعَتَيْ الضُّحَى، وَأَنْ أُوتِرَ قَبْلَ أَنْ أَنَامَ**»[٢].

---

(١) المدعوون الحقيقيون هم السواد الأعظم من المسلمين والمؤمنين العاملين والملتزمين بالإسلام، عيساوي، أحمد محمود، دراسات وأبحاث في تاريخ الدعوة والدعاة، دار الكتاب الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ص٥٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب صلاة الضحى في الحضر، حديث رقم ١١٧٨؛ ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى، حديث رقم ٧٢١.

وكوصيته ﷺ لأبي ذر الغفاري رضي الله عنه حين قال: إِنَّ خَلِيلِي ﷺ أَوْصَانِي: «**إِذَا طَبَخْتَ مَرَقًا فَأَكْثِرْ مَاءَهُ، ثُمَّ انْظُرْ أَهْلَ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِكَ، فَأَصِبْهُمْ مِنْهَا بِمَعْرُوفٍ**»(١).

ولذا حرصت السنة النبوية المطهرة على وحدة وتماسك هذا الصنف المتميز من المدعوين بكل ما أوتيت من بلاغ، وعدت وحدة الجماعة المسلمة مقصدا كليا من مقاصد الشريعة الإسلامية، فقد تشدد رسول الله ﷺ في سبيل الحفاظ على تضامن هذه الفئة.

ومما ينسحب على هذه الفئة ما جاء عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ جَاءَتْهُ جُهَيْنَةُ فَقَالُوا: إِنَّكَ قَدْ نَزَلْتَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا فَأَوْثِقْ لَنَا حَتَّى نَأْتِيَكَ وَتُؤْمِنَّا، فَأَوْثَقَ لَهُمْ فَأَسْلَمُوا.. قَالَ فَبَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي رَجَبٍ وَلَا نَكُونُ مِائَةً، وَأَمَرَنَا أَنْ نُغِيرَ عَلَى حَيٍّ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ إِلَى جَنْبِ جُهَيْنَةَ، فَأَغَرْنَا عَلَيْهِمْ وَكَانُوا كَثِيرًا فَلَجَأْنَا إِلَى جُهَيْنَةَ فَمَنَعُونَا وَقَالُوا لِمَ تُقَاتِلُونَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ؟ فَقُلْنَا: إِنَّمَا نُقَاتِلُ مَنْ أَخْرَجَنَا مِنْ الْبَلَدِ الْحَرَامِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ.. فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ: مَا تَرَوْنَ؟ فَقَالَ بَعْضُنَا نَأْتِي نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ فَنُخْبِرُهُ، وَقَالَ قَوْمٌ: لَا، بَلْ نُقِيمُ هَاهُنَا.. وَقُلْتُ أَنَا فِي أُنَاسٍ مَعِي: لَا بَلْ نَأْتِي عِيرَ قُرَيْشٍ فَنَقْتَطِعُهَا.. فَانْطَلَقْنَا إِلَى الْعِيرِ، وَكَانَ الْفَيْءُ إِذْ

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار والإحسان إليه.

ذَاكَ مَنْ أَخَذَ شَيْئًا فَهُوَ لَهُ، فَانْطَلَقْنَا إِلَى الْعِيرِ، وَانْطَلَقَ أَصْحَابُنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ فَقَامَ غَضْبَانًا مُحْمَرَّ الْوَجْهِ فَقَالَ:

«**أَذَهَبْتُمْ مِنْ عِنْدِي جَمِيعًا وَجِئْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ؟ إِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْفُرْقَةُ.. لَأَبْعَثَنَّ عَلَيْكُمْ رَجُلًا لَيْسَ بِخَيْرِكُمْ، أَصْبَرُكُمْ عَلَى الْجُوعِ وَالْعَطَشِ**» فَبَعَثَ عَلَيْنَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَحْشٍ الْأَسَدِيَّ رضي الله عنه فَكَانَ أَوَّلَ أَمِيرٍ أُمِّرَ فِي الْإِسْلَامِ[1].

ومثل هذا السلوك الدعوي النبوي كثير مع جمهور الصحابة، رضي الله عنهم، ولاسيما إن كانوا من جمهور المدعوين الحقيقيين، الذين يقع عليهم عماد الدين وقومته، كوصيته، عليه الصلاة والسلام، للمهاجرين ولعامة المسلمين بالأنصار، فعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :«**أُوصِيكُمْ بِالْأَنْصَارِ، فَإِنَّهُمْ كَرِشِي وَعَيْبَتِي، وَقَدْ قَضَوُا الَّذِي عَلَيْهِمْ وَبَقِيَ الَّذِي لَهُمْ، فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ**»[2].. فضلا عن ما له علاقة بوحدة الجماعة المسلمة، إذْ هي أصل قيام شوكة الدين وشريعته، فقد جاء عن الْعِرْبَاض بْن سَارِيَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى**

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ج١، ص١٧٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب قول النبي ﷺ : «**اقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ**»، حديث رقم٣٧٩٩ و٣٥٨٨، وغيره.

اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[1].

ومن هنا ينطلق الداعية في توجهه الدعوي مع جمهور المدعوين الحقيقيين لاستكمال البناء، وترميم ما اختل، ومواصلة الطريق نحو الله، ولن يتأتى له كل ذلك إلاّ إذا وعى منهج الدعوة مع هذا الصنف المتميز من المدعوين، حتى لا يضع الناس جميعا في سلة واحدة.

٢ – المدعوون المستقبلون[2]:

يُعد صنف المدعوين المستقبلين للرسالة الإسلامية أحد الأصناف السهلة والصعبة معا بالنسبة للدعاة، فبحسب إحكام اختيار حامل الخطاب ومراعاة مضمونه وسائر متعلقاته وأسباب نجاحه، وفهمه وتدبره لمقاصد الشريعة، تكون النتيجة تبعا له، فإن أُحكمت هذه المعطيات كانت النتيجة إيجابية وفلاحا على الدعوة والمدعوين، وإن وقع خلل مقصود أو غير متوقع أو مفاجئ أو غير مدروس ومحسوب كانت النتيجة عكسية على الدعوة والمدعوين معا.

---

(١) أخرجه أبو داود، كِتَاب السُّنَّةِ، بَاب فِي لُزُومِ السُّنَّةِ؛ وغيره.

(٢) المدعوون المستقبلون هم السواد الأعظم من الجماهير المسلمة، التي تعرف منها وتُنكر والتي تلتزم ببعض الإسلام وتترك بعضه، وينضم إليهم كل المهتمين والمنتظرين والمتابعين للخطاب الإسلامي من عامة الأمم الأخرى، عيساوي، أحمد، دراسات وأبحاث في تاريخ الدعوة والدعاة، ص٦١.

لذا فقد كان رسول الله ﷺ يتخير من بين الجمع الغفير من صحابته، رضي الله عنهم، من عُرفوا بالحكمة والرزانة والحلم وفصاحة اللسان وقوة العارضة والبيان، للتصدي لمثل هذه المهام الخطيرة، ولمخاطبة نوعية خاصة من المدعوين، يترتب عليهم إيمان أو صدود ومعاداة قومهم.

ومن أفاضل صحابته، رضي الله عنهم، الذين انتدبهم لمثل هذه المهام الدعوية الحساسة جدا، الصحابي الجليل الْعَلَاء بْن الْحَضْرَمِيّ رضي الله عنه الذي راح يخاطب الْمُنْذِر بْن سَاوَى الْعَبْدِيّ، ملك البحرين، بقوله الرزين جدا: «يَا مُنْذِرُ، إِنَّكَ عَظِيمُ الْعَقْلِ فِي الدُّنْيَا، فَلَا تَصْغُرَنَّ عَنِ الْآخِرَةِ»(١).

وهذا الصحابي الجليل عَمْرُو بْنُ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيُّ رضي الله عنه الذي مضى يخاطب النجاشي بقوله الهادئ: «أَنَا عَلِيَّ الْقَوْلُ وَعَلَيْكَ الِاسْتِمَاعُ: إِنَّكَ كَأَنَّكَ فِي الرِّقَّةِ عَلَيْنَا مِنَّا، وَكَأَنَّا فِي الثِّقَةِ بِكَ مِنْكَ، لِأَنَّا لَمْ نَظُنَّ بِكَ خَيْرًا قَطُّ إِلَّا نُلْنَاهُ، وَلَمْ نَخَفْكَ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا أَمِنَّاهُ»(٢).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ج٤، ص٣٣٩، حديث رقم ١٩١٩٥؛ والطبراني، أبو سليمان بن أحمد في معجمه الكبير، مرجع سابق، ج١٨، ص٩٣، حديث رقم١٦٥؛ وفي المعجم الأوسط، ج٤، ص١٥، حديث رقم٣٤٩٥؛ وفي الصغير، ج١، ص٢٤٦، حديث رقم٤٠٠.

(٢) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير، ج٢٠، ص٩، حديث رقم١٢. وغيره كأحمد في مسنده؛ وانظر أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ابن قيم الجوزية)، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، دار القلم- دار الشامية،١٤١٦هـ / ١٩٩٦م

وهـذا هـو منهجـه الـدعوي، عليـه الصـلاة والسـلام، الـمُشبع بـالحكم المقاصـدية وبفقـه الواقـع والمحـل، في دفـع الرجـل المناسـب نحـو الوجهـة المناسـبة، وكان رسول الله ﷺ يوصي رسولَه بوصية تكون له زادا في مهمته تلك، هذا إن لم يسارع رسولُ رسولِ الله ﷺ للمسارعة بالسؤال وطلب الوصية، ليضمن النجاح والتوفيق والسداد في مهمته تلك.. فعن مُعَاذ رضي الله عنه قال: يا رسول الله، أوصني.. قال:

«اعْبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، وَاعْدُدْ نَفْسَكَ فِي الْمَوْتَى، وَإِنْ شِئْتَ أَنْبَأْتُكَ بِمَا هُوَ أَمْلَكُ بِكَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ»، قال: **«هذا»**.. وأشار بيده إلى لسانه[1].

وهذا أبـو سَـعِيدٍ رضي الله عنه قَـالَ: جَـاءَ رَجُـلٌ إِلَى رَسُـولِ اللَّهِ ﷺ فَقَـالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْصِنِي.. قَالَ:

«عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فَإِنَّهَا جِمَاعُ كُلِّ خَيْرٍ، وَعَلَيْكَ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّهَا رَهْبَانِيَّةُ الْمُسْلِمِينَ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللَّهِ وَتِلاوَةِ كِتَابِهِ، فَإِنَّهُ نُورٌ لَكَ فِي الأَرْضِ وَذِكْرٌ لَكَ فِي السَّمَاءِ...»[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد جيد. وقال عنه العلامة الألباني في (صحيح الترغيب): حسن صحيح.

(٢) أخرجه الطبراني في الصغير وأبو الشيخ في الثواب كلاهما من رواية ليث بن أبي سليم ورواه ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ أيضا مرفوعا عليه مختصرا، وصححه العلامة الألباني في (صحيح الترغيب).

ولن يتأتى للداعية ذلك التوجه السليم ليدفع القول السليم ويجلب المدعو السليم إذا كان لا يعرف حقائق أتباعه ومريديه ومستمعيه وقدراتهم ومواهبهم وإمكاناتهم كما كان عليه منهج رسول الله ﷺ، ومن بعده خلفاؤه الراشدون، ومن صار خليفة رشيدا في خلافة الأمة الإسلامية في العهد الأموي كالخليفة الراشدي الخامس عمر بن عبد العزيز، وغيره من خلفاء بني العباس وبني أمية في الأندلس، ودولة الأتابكة كنور الدين محمود زنكي، وعماد الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، وخلفاء الدولة المرابطية، والموحدية.

ويعد هذا من أسمى ما توصلت إليه الإنسانية في الحكم الراشد، فقديما كان يقال: «أرسل حكيما ولا توصه»، واليوم ينضبط المبدأ السياسي في القاعدة السياسية والإدارية «الرجل المناسب في المكان المناسب»، و«الداعية المناسب في مواجهة الجمهور المدعو المناسب».

٣ – المدعوون المرتقبون:

يُعد صنف المدعوين المرتقبين في حقل العمل الدعوي من أنجع الفضاءات الواجب على الدعاة استثمارها بجد ومثابرة، فهم خميرة وعموم المدعوين من جهة، وهم أيضا مدد الفئة المؤمنة وسوادها من جهة ثانية، وهم الفئة التي يمكن سحبها من فئة المدعوين المستقبلين من جهة ثالثة.

فبمجرد توجيه سيول الخطابات الدعائية الإسلامية المتميزة والمؤثرة نحو فئة المدعوين المستقبلين، لا يبقى أمامنا سوى أن ننتظر وصولهم الطوعي

والاختياري والهادئ إلى هذه الفئة والدرجة، ليصبحوا قريبين أو بين قاب قوسين أو أدني من الدخول في الإسلام، ويحتاج هذا الصنف القريب من الصنف الذي قَبْلَهُ إلى خطاب أكثر تخصصية وتفصيلية ودقة ووضوح ورحمة وحلم واهتمام وصبر بهم وبمشاكلهم وبانشغالاتهم وبوضعهم الجديد في ظل الانتماء الديني الجديد، ولنا في التراث الإسلامي العريق الأمثلة والنماذج على ذلك، حيث تُشكل قيم الرفق والرحمة والتيسير أحد هذه المعابر السريعة والآمنة نحو هذه الفئة التي تنتظر بفارغ الصبر حقائق الإسلام الشافية لهمومها ومشكلاتها.

فهذه أم المؤمنين السيدة عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، تقول واصفة سلوك رسول الله ﷺ في الدعوة والتعامل القائم على اليسر واللين، بقولها: «مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ»(١).

ومن ذلك الخطاب الدعوي المقاصدي الرفيق وصف رسول الله ﷺ في كتبه إلى الملوك والأمراء وحكام أقوامهم بعبارة (**عَظِيمِ**) رحمة ورأفة وشفقة وتحبيبا لهم بالإسلام، فعندما أرسل كتابه إلى ملك الروم سماه بـ (**عَظِيمِ الرُّومِ**)، وإلى كسرى فسماه بـ (**عَظِيمِ الفرس**)، وهكذا سائر مراسلاته وكتاباته ﷺ مليئة بالقيم والنعوت والتوصيفات الفاضلة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كِتَاب الْمَنَاقِبِ، بَاب صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

ومن أمثلة حكمته ورحمته ولينه وبعد مقاصده وإدراكه لواقع المدعوين على حقيقتهم فعله ﷺ مع المدعوين المرتقبين أنه كره من الصحابة أخذهم ذلك الأعرابي الذي بال في المسجد بالشدة، ونهيه لهم بقوله: «...**إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**»[1]، فرأى رسول الله ﷺ أن هذا النهي من صحابته منشأ مفسدة أعظم، وهي تنفير هذا الرجل من الدخول في الإسلام، وأن البول في المسجد تلطيخ لمحل العبادة بالنجاسة التي تطهر بالماء، فاختار أن يعلمهم ما تقتضيه قاعدة «ارتكاب أخف الضررين»[2].

٤ – المدعوون المتشككون[3]:

يُعد صنف المدعوين المتشككين من أعقد وأشد الأصناف على الداعية، إذ يحتاجون إلى فهم خاص ومتميز وصحيح ودقيق، ولاسيما في أساليب التعامل وأفانين الخطاب ومنازع الأخذ، حيث يحتاج هذا الصنف إلى أسلوب ذكي ودقيق ومنضبط في الحوار، يغلب عليه التوقير والاحترام والاقتصاد في

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، ج١، ص٦٥، كتاب الطهارة، حديث رقم٢٢٠؛ وغيره.

(٢) انظر: أيمن صالح، أسباب اختلاف الفقهاء في تنزيل قاعدة ارتكاب أخف الضررين على الوقائع، مؤتمر فقه الموازنات، جامعة أم القرى مكة المكرمة ٢–٤ سبتمبر٢٠١٣م، ص ٢٨٥٨.

(٣) المدعوون المتشككون هم فئات من المسلمين ومن غيرهم، ممن يحصل لهم الارتياب في دين الإسلام جراء زحمة الخطابات المعادية وغير المتزنة والمتشددة، عيساوي، أحمد محمود، دراسات وأبحاث في تاريخ الدعوة والدعاة، ص ٦٧.

الكلام، لا يحتمل التفسير ولا التأويل، رحمة ورأفة وشفقة بعنادهم وشكهم الذي يجتاح أنفسهم وعقولهم، ويصعب عمل الداعية إن كان المدعو ذا مكانة تقتضي الطاعة، كطاعة الأب والمعلم.

وقد قدم لنا القرآن الكريم مثلين دعويين شاب صاحبيهما الشكُّ، ففيما «قصه علينا القرآن من موعظة إبراهيم عليه السلام لآزر وتسميته أباً ما يرشدنا إلى أن الأبوة لا تمنع من الأمر بمعروف أو النهي عن منكر، ولكن الأب يستحق من أدب الخطاب ولطف الموعظة أكثر مما يستحق غيره. وفي قصة موسى والخضر، عليهما السلام، واتباع الأول للثاني بصفه متعلم، ثم إنكاره عليه خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار، عبرة للمتعلمين والمعلمين، فللمتعلمين حق الإنكار وعلى المعلمين ألا يستنكفوا»[1].

ومن حكمته المقاصدية وبصره بواقع المدعوين: رحمته ﷺ بهذا الصنف من المدعوين تعطفه ورحمته بذلك الشاب الذي استأذنه في الزنا..

فعَنْ الصحابي الجليل أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ: إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا.. فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ، فَزَجَرُوهُ، قَالُوا: مَهْ مَهْ، فَقَالَ: «**ادْنُهْ**»، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، قَالَ: فَجَلَسَ، قَالَ: «**أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟**»، قَالَ: لَا، وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ.. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ**».. قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ**»؟، قَالَ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ.. قَالَ:

---

(١) انظر: حسين، محمد الخضر، الدعوة إلى الإصلاح، ص٤٠.

«**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ**».. قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ**»؟ قَالَ: لَا، وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ**».. قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ**»؟، قَالَ: لَا، وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ**».. قَالَ: «**أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ**»؟، قَالَ: لَا، وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ.. قَالَ: «**وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ**»، قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ**»، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ[1].

وما يستفاد من فعله ﷺ أنه كان مشفقا على حاله أيما إشفاق، متلطفا رحيما بمشكلته، وهي مشكلة الملايين من الشباب المسلم اليوم، ناهجا معه أسلوبا متميزا في الدعوة، جمع الرحمة والرأفة والشفقة واللين والإقناع الهادىء والمنطقي، لمقاصد كبرى ينشدها، عليه الصلاة والسلام، من جهة، ولعلمه بواقعه وحاله من جهة أخرى، أسوة بنبي الله إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، وهو يُحَاج الملك المشكك في عظمة وقدرة الله، حيث قص علينا القرآن الكريم تلك المحاورة:

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ج٥، ص٢٥٦ و٢٥٧، حديث رقم ٢٢٢٦٥؛ والطبراني في المعجم الكبير، ج٨، ص١٦٢ و١٨٣، حديث رقم٧٧٥٩؛ والبيهقي في شعب الإيمان، ج٤، ص٣٦٢، حديث رقم ٥٤١٥، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ج١، ص٧١٢، حديث رقم٣٧٠.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة:٢٥٨)[١].

وهكذا وبمثل هذه الروية والمنطقية والتعقل يجب التعامل مع هذا الصنف من المدعوين المتشككين، ولا يتأتى للدعاة هذا المستوى من الحِلْمِ الرزين الرفيق، إن لم يتسلحوا بعلوم الدين والدنيا كلها، لأنهم إن وجدوا دعاة حكماء أخذوا بأيديهم نحو صنف المدعوين المنتظرين أو الحقيقيين، وهي مهمة ليست سهلة، إلاّ على من سهلها الله عليه بطلب العلم والمعرفة.

٥ – المدعوون المناوئون[٢]:

يُعد صنف المدعوين المناوئين من أخطر الأصناف في حقل الدعوة الإسلامية، ومن أشد المهام التي تعترض الدعاة للوصول إليهم من جهة، وإلى جمهور المدعوين المستقبلين والحقيقيين من جهة ثانية، وعلى الإبقاء على صفاء وسلامة وحرية الساحة الدعوية من جهة ثالثة، حيث تمتلئ بمثل هذا الصنف المعادي الذي يعكر عمل الدعاة، ولنا في تراثنا الإسلامي منهجا ثريا في التعامل مع مثل هذا الصنف المعادي.

---

(١) انظر: أرشيف ملتقى أهل الحديث ٢، وقفة مع زواج المتعة، ج٣، ص٢٨١، تاريخ الدخول للموقع ٢٠١٥/٠٩/٠٤م.

(٢) المدعوون المناوئون هم الذين نصبوا أنفسهم للإيقاع بالإسلام وأهله، عيساوي، أحمد محمود، دراسات وأبحاث في تاريخ الدعوة والدعاة، ص٧٣.

فلنا من روائع أدب الدعوة القرآني في تجلية معاني الاحترام والتبجيل والرحمة كمقاصد عظيمة في هذا الدين، وهو أن تخاطب المدعوين بأعظم آبائهم إليهم، وبأحسن أجدادهم إليهم، وبأفضل وأشرف ألقابهم إليهم، فقد امتلأ القرآن الكريم بمثل هذه الروائع الدعوية رحمة بالمدعوين، وجلبا لهم بكرامتهم الكاملة للإذعان للحق، فقد خاطب الله سبحانه وتعالى اليهود في القرآن تحبيبا وتعظيما لهم، بقوله:

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (البقرة:٤٧)، فنسبهم إلى أحسن آبائهم وهو سيدنا يعقوب، عليه الصلاة والسلام.

كما كان يُجلهم بخطابه المتميز رحمة ورأفة بهم، كي لا يعاندوا ويستكبروا ويصروا، حيث ينعتهم بالقراءة والكتابة وامتلاك الكتب والمعارف في مجتمع أمي جاهلي، فقال في العديد من المواقع:

- ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (آل عمران:٦٤)،

- ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ (آل عمران:٦٥)،

- ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴾ (آل عمران:٦٩)،

- ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ (البقرة:١٠٥).

وذلك بعد أن جعلهم مضرب مثلٍ في القرآن المكي، وهم يُلاحَقون من فرعون وجنوده، واتخذهم أسوة حسنة وقدوة طيبة للمؤمنين المطاردين والملاحقين من كفار قريش، وهذا من معاني الحكمة والرحمة في الدعوة وجذب المدعوين وإقامة الحجة عليهم.

وللأسف الشديد فإن هذا الصنف المعادي اليوم يضم الجمع الغفير من المثقفين والفلاسفة والكتاب والإعلاميين والفنانين والرسامين والمستشرقين والممثلين والمسرحيين، ممن ينتجون المواد الثقافية والفكرية والإعلامية والفنية والأدبية المشوهة لحقيقة وجوهر الإسلام، وتاريخ وحقيقة سلوك شخصية نبيه الكريم محمد ﷺ الخاصة والعامة، ولصورة المسلمين التاريخية والواقعية.

وعليه، فهم يحتاجون من الدعاة ومن الهيئات والمنظمات الدعوية الإسلامية إلى توجيه رسائل متنوعة المضامين والأشكال والقوالب والقنوات، وإلى صياغة خطابات عديدة ومتنوعة تتسم بالعمق والدقة والتقنية، مفعمة بالرحمة والشفقة والإقناع معا، ممتثلين لنصيحته ﷺ وهو يوصينا بأن نستغل تلك العقبة من ضغث الرحمة الإلهية المرسلة إلى الأرض ليتراحم بها الناس بينهم: «**جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا،**

وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يَتَرَاحَمُ الْخَلْقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ»[1].

وهنا وجب على الدعاة –انطلاقا من مقاصد الشريعة وفقه الواقع والتنزيل وفقه المحل– عدم التهكم والازدراء بعقول وأحلام المدعوين، وعليهم أن يضعوا كرامتهم الإنسانية فوق كل اعتبار، والتنبه والحرص لسيول مكائدهم التي لا تنقطع، لأن ذلك يُخفف من غلواء خُيَلائهم وشطط آرائهم وشذوذ أفكارهم، وإن لم يُحسن الداعية احترام هذه الأصناف وتوقيرها وتكريمها، لما استطاع أن يقيم الحجة عليها، ولا أن يدحض مكائدها، ولا أن يُحيدها جانبا وهو أضعف الإيمان، ليتفرغ لعمله الدعوي تجاه المدعوين الآخرين، وينجَرَّ بالتالي معهم في متاهات تُحيل الصريح رمزا وشبهة، والطعن غمزا وشكا، والمعقول منقولا، والباطل حقا، والحق عجابا[2].

وهكذا يكون التعامل مع أصناف المدعوين، مراعاة لظروفهم وأحوالهم ومقتضياتهم، حيث أرست الشريعة قواعدها وأسسها الدعوية النظرية والعملية.

وما يمكن الخلوص إليه في هذا المبحث وفي هذا الفصل أيضا، ومن خلال مباحثه الأربعة، والذي تناولنا فيه علمي المقاصد وفقه الواقع كقيمة مركزية في هذا الدين، ودورهما في نجاح العمل الدعوي، وتسديد منطلق وجهة

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب.

(٢) انظر: حسين، محمد الخضر، الدعوة إلى الإصلاح، ص٢٨.

ومقصد الداعية، وأصناف المدعوين والخطابات المناسبة لهم، هو: ضرورة وعي الدعاة لأهمية استجماع المعارف الخاصة والعامة بتلك الأركان والأصناف على حدة، ومن ثمة تكوين رؤية معرفية واقعية ومقاصدية أثناء إعداد وصياغة وتوجيه الخطابات الدعوية الخاصة بهم، لضمان النجاح والسداد والتوفيق.

ومنه ننتقل إلى الفصل التطبيقي الثالث، الذي سنتناول فيه أنموذجا تطبيقيا لحوار تم بين مخلوقين من مخلوقات الله تعالى في الأرض، بدتْ فيه معالم فقه الواقع والتنزيل والمحل، وتحررتْ فيه مفاهيم ومعالم فقه المقصد، لعله يزيدنا استجلاءً ووضوحا عمليا، ويكون خاتمة تطبيقية مناسبة لبحثنا هذا.

الفصل الثالث

حوار النملة ونبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام

يكتسب الفصل التطبيقي قيمته من كونه يجسد المظاهر المرئية والمعالم السلوكية للطروحات النظرية المرتادة، وفي حوار النملة مع نبي الله سليمان، عليه الصلاة والسلام، القرآني خير مثال وأنموذجٍ تطبيقي لارتياداتنا النظرية السالفة الذكر في عالميْ المقاصد وفقه الواقع والمحل والتنزيل.

وذلك عبر المطلبين التاليين:

١ – المطلب الأول: حوار النملة ونبي الله سليمان، عليه الصلاة والسلام.

٢ – المطلب الثاني: مقاصد الحوار القرآنية.

المطلب الأول

حوار النملة ونبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام

وقد بدا لنا من خلال بحثنا واستقصائنا أن الخطرات والمقدمات المقاصدية الأولى إنما كانت محصلة مجموعة من الكفاءات والمهارات القدرات، التي أُعطتها بعض مخلوقات الله سبحانه وتعالى بما فيها الإنسان، سواء كان ذلك بالفطرة والجبلة أو بالكسب والتمهر، وبدت في تلك المشاهد والأحداث والقصص البشرية والحيوانية والحشرية، التي رواها لنا القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ثم وجدت طريقها التدويني الأول بعد ذلك في اجتهادات المجتهدين، بدءاً من الإمام «الشاطبي» ووصولا إلى «محمد الطاهر بن عاشور»، و«علال الفاسي»، و«عبد الوهاب خلاف»، و«أحمد الريسوني»، و«محمد الوكيلي»، و«عبد الله بن بية»، و«عبد المجيد النجار»، و«عبد الكريم حامدي»، وغيرهم..

ويُعد توقفنا مع حوار النملة ونبي الله سليمان، عليه الصلاة والسلام، كمحطة مقاصدية تجلت من خلالها الأبعاد المقاصدية، التي سعت النملة

لاستدراكها وتحصيلها عبر أدبيات الحوار المنطقي العادل والهادئ، إذ ضمن الله سبحانه وتعالى من خلال هذا الدرس القانوني والأخلاقي النبيل حقوق الحشرات أمام أقوى الملوك والممالك، وهو الذي توخيناه من خلال هذا الدرس القرآني، الذي دفعنا لتتبع مظانه في مصادر التفسير.

فقد أورد المفسرون[1] الكثير من الأقوال والآثار والأخبار حول نوع النملة، وشكلها، وصنفها، وجنسها، وجناحاها، وقومها، وعن الوادي، الذي – هو بالشام أو بالطائف أو باليمن أو بالعراق أو بالهند...– خاطبته فيه، وكيف أمر الله الريح بأن لا يتكلم أحد من الخلائق إلاّ وحملت قوله إلى نبيه سليمان، فبذلك سمع سليمان، عليه السلام، كلام النملة من مسافة ثلاثة أميال، وأُعجب بما أجراه الله على لسانها من العلم والغيب وبحكمتها وشهادتها بدينه وخلقه ورأفته وعدله في ملكه، الذي لا بغي فيه ولا عدوان.

---

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري، جامع البيان، دار هجر، ج١٢، ص٢٨؛ تفسير القرطبي، ج١٣، ص١٦٧–١٧٣؛ تفسير البغوي، ج٦، ص١٥٠؛ تفسير ابن أبي حاتم، ج٩، ص٢٨٥٧– ٢٨٥٨؛ تفسير مقاتل بن سليمان، ج٢، ص٤٧٢؛ جلال الدين السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ج١١، ص٣٤٥ –٣٤٦؛ تفسير الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن، ج٨، ص٩؛ سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٥، ص٢٦٢٤– ٢٦٣٨؛ وغيرهم من التفاسير، كتفسير ابن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، طبعة وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٣٢٨– ٣٤٤.

قيل: خَرَجَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ، عَلَيْهِمَا السَّلامُ، يَسْتَسْقِي، فَمَرَّ بِنَمْلَةٍ مُسْتَلْقِيَةً عَلَى ظَهْرِهَا رَافِعَةً قَوَائِمَهَا إِلَى السَّمَاءِ، وَهِيَ تَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنَّا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِكَ، لَيْسَ بِنَا غِنًى عَنْ سُقْيَاكَ وَرِزْقِكَ، فَإِمَّا أَنْ تَسْقِيَنَا وَتَرْزُقَنَا، وَإِمَّا أَنْ تُهْلِكَنَا».. فَقَالَ سُلَيْمَانُ، عَلَيْهِ السَّلامُ: «ارْجِعُوا فَقَدْ سُقِيتُمْ بِدَعْوَةِ غَيْرِكُمْ»[1].

وقيل: إن النملة وعظته، وخشيت أن يحطم بريقُ ملكه وعظمته قلوبَ النمل فيشغلهن عن ذكر الله.. وقالت له: أَمَا عَلِمْتَ لِمَ سُمِّيَ أَبُوكَ دَاوُدُ؟ قَالَ: لَا.. قَالَتْ: لِأَنَّهُ دَاوَى جِرَاحَةَ فُؤَادِهِ.. هَلْ عَلِمْتَ لِمَ سُمِّيتَ سُلَيْمَانَ؟ قَالَ: لَا.. قَالَتْ: لِأَنَّكَ سَلِيمُ النَّاحِيَةِ عَلَى مَا أُوتِيتَهُ بِسَلَامَةِ صَدْرِكَ[2].

قال السعدي في تفسيره «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان»:

«فَنَصَحَتْ هَذِهِ النَّمْلَةُ وَأَسْمَعَتِ النَّمْلَ، إِمَّا بِنَفْسِهَا، وَيَكُونُ اللَّهُ قَدْ أَعْطَى النَّمْلَ أَسْمَاعًا خَارِقَةً لِلْعَادَةِ؛ لِأَنَّ التَّنْبِيهَ لِلنَّمْلِ الَّذِي قَدْ مَلَأَ الْوَادِيَ بِصَوْتِ نَمْلَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ أَعْجَبِ الْعَجَائِبِ، وَإِمَّا بِأَنَّهَا أَخْبَرَتْ مَنْ حَوْلَهَا مِنَ النَّمْلِ ثُمَّ سَرَى الْخَبَرُ مِنْ بَعْضِهِنَّ لِبَعْضٍ، حَتَّى بَلَغَ الْجَمِيعَ، وَأَمَرَتْهُنَّ بِالْحَذَرِ وَالطَّرِيقِ فِي ذَلِكَ، وَهُوَ دُخُولُ مَسَاكِنِهِنَّ.

وَعَرَفَتْ حَالَةَ سُلَيْمَانَ وَجُنُودِهِ وَعَظْمَةَ سُلْطَانِهِ، وَاعْتَذَرَتْ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ حَطَّمُوكُمْ فَلَيْسَ عَنْ قَصْدٍ مِنْهُمْ وَلَا شُعُورٍ.. فَسَمِعَ سُلَيْمَانُ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ

---

(١) انظر: أبو نعيم الأصبهاني، حلية الأولياء.

(٢) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، سورة النمل.

وَالسَّلَامُ، قَوْلَهَا وَفِهمَهُ ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾؛ إِعْجَابًا مِنْهُ بِفَصَاحَتِهَا وَنُصْحِهَا وَحُسْنِ تَعْبِيرِهَا، وَهَذَا حَالُ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - الْأَدَبُ الْكَامِلُ، وَالتَّعَجُّبُ فِي مَوْضِعِهِ، وَأَنْ لَا يَبْلُغَ بِهِمُ الضَّحِكُ إِلَّا إِلَى التَّبَسُّمِ، كَمَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ جُلُّ ضَحِكِهِ التَّبَسُّمُ...

وَقَالَ شَاكِرًا لِلَّهِ، الَّذِي أَوْصَلَهُ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ﴾ أَيْ: أَلْهِمْنِي وَوَفِّقْنِي ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ فَإِنَّ النِّعْمَةَ عَلَى الْوَالِدَيْنِ نِعْمَةٌ عَلَى الْوَلَدِ، فَسَأَلَ رَبَّهُ التَّوْفِيقَ لِلْقِيَامِ بِشُكْرِ نِعْمَتِهِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ عَلَيْهِ وَعَلَى وَالِدَيْهِ: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ أَيْ: وَوَفِّقْنِي أَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ؛ لِكَوْنِهِ مُوَافِقًا لِأَمْرِكَ مُخْلَصًا فِيهِ، سَالِمًا مِنَ الْمُفْسِدَاتِ وَالْمُنْقِصَاتِ ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ﴾ الَّتِي مِنْهَا الْجَنَّةُ ﴿فِي﴾ جُمْلَةِ ﴿عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فَإِنَّ الرَّحْمَةَ مَجْعُولَةً لِلصَّالِحِينَ، عَلَى اخْتِلَافِ دَرَجَاتِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ.. فَهَذَا نَمُوذَجٌ ذَكَرَهُ اللَّهُ مِنْ حَالَةِ سُلَيْمَانَ عِنْدَ سَمَاعِ خِطَابِ النَّمْلَةِ وَنِدَاءِهَا»[1].

وفي هذا الصدد يقول وهبة الزحيلي:

«عدَّدَ الله في القصة نعما ثلاثا على سليمان، عليه السلام: هي تعليمه منطق الطير وإيتاؤه الخير الكثير، وتسخير الجن والإنس والطير، وفهمه خطاب

(١) السعدي، أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر، تفسير تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ج١، ص٦٠٢.

النملة.. وأصوات الطيور والبهائم هو منطقها، وفي مناطقها معاني التسبيح وغير ذلك، كما أخبر تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء:٤٤).. وما حكاه تعالى من قول النملة: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حسن اعتذار، وبيان عدل سليمان ورأفته وتدينه وفضله وفضل جنوده، فهم لا يحطمون نملة أو لا يدوسون على نملة فما فوقها إلاّ خطأً غير مقصود لا يشعرون به»[1].

وقد أجرى المولى تبارك وتعالى سلسلة من الحوارات المتنوعة والمختلفة على مدار الحياة الدعوية للأنبياء والرسالات، لخص ونقل لنا بعضها وأهمها في كتبه السماوية وعلى ألسنة أنبيائه ومخلوقاته، وأرسى دعائمها وصفحاتٍ منها في القرآن الكريم، بحيث بدتْ المفاهيم الأولية والأساسية في علم المقاصد وفقه الواقع والمحل والتنزيل، نتابع معالمه الكبرى في المطلب الثاني.

(١) الزحيلي، محمد وهبة، التفسير المنير، ج١٩، ص٢٧٩.. ٢٨٩.

المطلب الثاني
مقاصد الحوار القرآنية

تضمن الحوار القصير، الذي جرى بين نبي الله سليمان، عليه الصلاة والسلام، والنملة جملة من الحقائق الكونية والعقدية والتعبدية والتربوية والأخلاقية والطبيعية والبيئية واللغوية وغيرها.

فالحيوانات كلها لها «فهم وإدراك وأصوات تدل على ما في نفسها، وتتفاهم بها أجناسها، بعضها عن بعض، ومن تلك الأصوات ما يكون أخفى من أن يصل إليه سمعنا، ومنها ما نسمعه.. ومما نسمعه ما نفهم مرادها به، ومنه ما لا نفهمه، فلا نسمع صوت النملة، ولكننا نسمع صوت الهرة –مثلا– ونميز بين صوتها، الذي تدل به على غضبها، وصوتها الذي تدل به على طلبها.. وفي مملكة النمل ومملكة النحل –مثلا– من النظام والترتيب والتقدير والتدبير ما لا يبقى منه شك فيما لهذه الحيوانات من إدراك وتمييز، وما بينها من تفاهم، بل كثير من الحيوانات تصير بالترويض تفهم عنا كثيرا من العبارات والإشارات، وتأتي بالأعمال العجيبة طبق ما يراد منها وتدل عليه.. فهذا أصل ما بلغت إليه من إدراكها ونطقها، اللذين أخبرنا بهما القرآن.. وتلك الغاية من الإدراك والنطق لا سبيل لنا إليها، لاختلاف الخلقة وجهل مدلول الأصوات،

وقد أدركها نبي الله سليمان، عليه الصلاة والسلام، بتعليم من الله كرامة له، وآية على نبوته ومعجزاته للناس»[1].

وما يمكن استنتاجه من حوار النملة مع نبي الله سليمان، عليه الصلاة والسلام، الذي ورث نبوة وعلم أبيه، وأعطي فوقه الملك زيادة[2]، الآتي:

١ – مكانة الحوار كصيغة من صيغ التواصل بين سائر المخلوقات، وعبر مختلف اللغات؛ لأن «من حكمة اللغة العربية الشريفة أن سمت أصوات الحيوانات نطقا، كما سمت – في المتعارف- اللفظ الذي يعبر به عما في الضمير نطقا؛ لأن الأصوات لغير الإنسان تقوم مقام الألفاظ للإنسان، فهي طريق تفاهمها، وطريق فهم ما يمكن لإنسان فهمه عنها»[3].

٢ – معرفة أدبيات الحوار البناء وشروطه وخصائصه ومميزاته وضوابطه وطرائفه، فقد كان «صدور ذلك الإنذار البليغ من مثل تلك النملة في ضعفها وصغرها طريف مستظرف ككل شيء يصدر من حيث لا ينتظر صدوره.. فهذا مبعث تعجب سليمان، عليه الصلاة والسلام، وشهادة النملة له ولجنوده بأنهم لو وطئوا النمل لوطئوه من غير شعور، فهم لرحمتهم وشفقتهم وارتباطهم بزمام التقوى وأخذهم بالعدل لا يتعمدون التعدي على أضعف المخلوقات

(١) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، طبعة وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٣٣٥ -٣٣٦.

(٢) عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، المصدر السابق، ص٣٣٤.

(٣) المصدر السابق، ص٣٣٦.

العجماء.. هذه الشهادة أدخلت السرور على سليمان، عليه الصلاة والسلام، لما دلت عليه من ثبوت هذا الوصف العظيم له ولجنده وظهوره منهم واشتهارهم به كما بعث سروره شعوره بما آتاه الله من الملك العظيم والعلم، الذي لم يؤته غيره حتى فهم به ما همست به النملة، وهي من الحكم، الذي ليس له صوت يستبان في حال من الأحوال»[1] .

٣ – أهمية رسم وضبط أهداف الحوار منطلقا وهدفا ومقصدا.. و«شارك الحيوان الإنسان في الإدراك والتمييز، وبلغ إدراكه إلى معرفة وجود خالقه ورازقه، ولكن الإنسان يمتاز عنه بقوة التحليل والتركيب لكل ما يصل إليه حسه وإدراكه، وتطبيق ذلك على كل ما تمتد إليه قدرته ويكون في متناول يده»[2] .

٤ – معرفة أركان عملية الحوار الأساسية: «طرفا الحوار، موضوع الحوار، وسائله، فنياته، آثاره، أهدافه ونتائجه».. وقد ظهر ذلك جليا في ذلك الحوار القصير، حيث بدت كل العمليات العقلية والوجدانية حاضرة، من «..التركيب والتحليل والتطبيق.. فإدراك الحيوان فطري إلهامي، يُعطاه من أول الخلقة، والإنسان يعطى أصل الإدراك الإجمالي.. وقد ذكر سليمان، عليه الصلاة والسلام، منطق الطير، وهو قد علم منطق غير الطير أيضا، فقد فهم نطق النملة؛ ذلك لأن الحيوانات غير الإنسان مراتب: الزاحفة، والماشية، والطائرة، وأشرفها الطائرة، فاقتصر على الطير تنبيها بالأعلى على الأدنى»[3] .

---

(١) المصدر السابق، ص٣٤٣.
(٢) المصدر السابق، ص٣٣٦.
(٣) المصدر السابق نفسه.

كما بدت حقيقة ركني الحوار الأساسيين، وهما النملة ونبي الله سليمان، عليه الصلاة والسلام، حيث «عبر سليمان، عليه الصلاة والسلام، عن نفسه بنون العظمة، ونوه بذلك الفضل المبين، وما كان عليه الصلاة والسلام ليتعظم بسلطان ولا ليتطاول بفضل، فالأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، أشد الخلق تواضعا لله وأرحمهم بعباده، وإنما أراد تعظيم نعمة الله في عيون الناس وتفخيم ملك النبوة في قلوب الرعية ليملأ نفوسهم بالجلال والهيبة، فيدعوهم ذلك إلى الإيمان والطاعة، فينتظم الملك ويهنأ العيش، وتمتد بهم أسباب السعادة إلى خير الدنيا والآخرة.. وهذا هو الذي توخاه سليمان، عليه الصلاة والسلام، من المصلحة بإظهار العظمة، ولذا لم يقل: علمت، ولا لي وعندي من كل شيء، ولم يقل فضلي، فهو فضل الله من علمه، وآتاه من فضله به عمن سواه»[1] .

٥ – معرفة بنية الخطاب المتكون من الحكم والأسرار والمقاصد والرموز، وإدراك الحيوانات لمصالحا ومضارها. و«قد شوهد بالعيان في أنواع من الحيوانات حسن تدبيرها لأمر معاشها ودقة سعيها في جلب منافعها ودفع مضارها، فمن الجائز أن يصل إدراكها بالفطرة إلى ما وراء ذلك من وجود خالقها ورازقها. وهذا هو الذي أخبرنا به القرآن في هذه الآيات من أمر النملة وأمر الهدهد.. فنحن به مؤمنون لجوازه عقلا وثبوته سمعا، مثل سائر السمعيات..»[2] .

---

(١) المصدر السابق، ص٣٣٧.

(٢) المصدر السابق نفسه.

٦ – إمكانية إجراء الحوارات على ألسنة الحيوانات، وهو المعروف في الفنون الأدبية بـ «أدب الحيوان»، وبرع فيه «أبو عثمان، عمرو بن بحر الكناني البصري الجاحظ» وكتابه «الحيوان» و«البخلاء»، و«أبو محمد، عبد الله بن المقفع» وكتابه الشهير «كليلة ودمنة»، و«La Fantaine – لافونتين» وقصصه وأشعاره المسماة بـ «الفابل– Fabelle»، و«أحمد شوقي» ومسرحياته الشعرية، و«توفيق الحكيم» وروايته «حمار الحكيم»، و«أحمد رضا حوحو» وقصصه الأدبية «مع حمار الحكيم».

٧ – أهمية معرفة قيمة وقوة وعلو الحق الاعتبارية والأخلاقية، أمام سلطة وجبروت الملك والسلطة، فالقوة الحقيقية هي قوة العقل والروح لا قوة الجسد.

٨ – أهمية ومكانة التربية الروحية والوجدانية في استقامة المجتمعات واستمرارها سوية وصالحة وبناءةً ومتوازنة.

٩ – معرفة واجب الفرد نحو قومه، فـ «لا حياة للشخص إلا بحياة قومه، ولا نجاة له إلا بنجاتهم، وأن لا خير لهم فيه إلا إذا شعر بأنه جزء منهم، ومظهر هذا الشعور أن يحرص على خيرهم كما يحرص على نفسه، وأن لا يكون اهتمامه بهم دون اهتمامه بها.. فهذه النملة هي كبيرة النمل، فقد كان عندها من قوة الإحساس ما أدركت به الخطر قبل غيرها، فبادرت بالإنذار، فلا يصلح لقيادة الأمم وزعامتها إلا من كان عنده من بُعد النظر

وصدق الحس وصائب الفراسة وقوة الإدراك للأمور قبل وقوعها، ما يمتاز به عن غيره، ويكون سريع الإنذار بما يحس وما يتوقع»[1] .

١٠- تمكن النملة من تحقيق المقاصد العامة لقومها، فقد حفظت لهم وحدتهم وحياتهم ونسلهم ومالهم ومستقبلهم؛ لأن «عاطفة الجنسية غريزة طبيعية، فهذه النملة لم تهتم بنفسها فتنجو بمفردها، ولم ينسها هول ما رأت من عظمة ذلك الجند إنذار بني جنسها، إذ كانت بفطرتها أن لا حياة لهم بدونها، ولا نجاة لها إذا لم تنج معهم، فأنذرتهم في أشد ساعات الخطر أبلغ الإنذار، ولم ينسها الخوف على نفسها وعلى بني جنسها من الخطر الداهم أن تذكر عذر سليمان وجنده»[2] .

كما أنها «وَفَّتْ لقومها وأدتْ واجبها نحوهم، فكيف بالإنسان العاقل فيما يجب عليه نحو قومه! هذه عظة بالغة لمن لا يهتم بأمور قومه ولا يؤدي الواجب نحوهم، ولمن يرى الخطر داهما لقومه فيسكت ويتعامى، ولمن يقود الخطر إليهم ويصبه بيده عليهم، آهٍ ما أحوجنا معشر المسلمين إلى أمثال هذه النملة»[3] .

وهكذا نتبين مقاصد ومنافع فن الحوار في القرآن الكريم وعلاقته بفقه المقاصد والمحل والتنزيل والواقع.

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٤١، بتصرف.

(٢) المصدر السابق، ص٣٣٧، بتصرف.

(٣) المصدر السابق، ص٣٤١، بتصرف.

الخاتمة

من خلال ما طرحنا من تساؤلات وإشكالات بحثية جديرة بالدراسة والتحليل والنظر من وجهة نظرنا، حول أهمية وأثر فقه علم المقاصد وفقه الواقع والمحل والتنزيل في نجاح العملية الدعوية، وبعد أن عرضنا فرضياتنا وتقصياتنا وأدلتنا البحثية النقلية والعقلية، وتبينا أن البحث والتمكن من علم المقاصد وفقه الواقع قيمة محورية ومركزية في صميم المنظومة المعرفية الشرعية الإسلامية، وهو علم لا غنى للداعية عنه البتة، نظرا لخصوصيته في فهم الدين وتحليل ظاهرة التدين، ومعرفة المناهج المثلى للوصول إلى جمهور المدعوين، أمكننا في نهاية هذا البحث، وبعد خطوات من الاستقصاء والتدليل أن نقرر الآتي:

١ – قيمة ومركزية علم مقاصد الشريعة الإسلامية وفقه الواقع والمحل والتنزيل وسعته وتطوره والإضافات المتميزة، التي أُضيفت إليه.

٢ – قيمة وأهمية ودور فقه علم المقاصد وفقه الواقع والمحل والتنزيل لنجاح العملية الدعوية.

٣ – قيمة علم المقاصد لنجاح الداعية الإسلامي، ودوره في زيادة تأصيل وحكمة وحنكة وثقافة ومنهج الداعية.

٤ – أثر علم المقاصد وفقه الواقع والمحل والتنزيل في التأثير في جمهور المدعوين، على اختلاف أصنافهم ومستوياتهم وفئاتهم.

٥ – قيمة وأهمية النماذج القرآنية في تعزيز مكانة وفاعلية الدرس الدعوي، كحوار النملة ونبي الله سليمان، عليه الصلاة والسلام، من وجهة مقاصدية.

* التوصيات:

وعليه، يوصي صاحب الدراسة بالآتي:

١ – ضرورة حِذْقِ الداعية لعلوم الشريعة عموما، وتَمَهُّرِهِ في علم مقاصد الشريعة وفقه الواقع والمحل والتنزيل خصوصا، ولاسيما الزيادات والإضافات والشروح، التي أبدع فيها المحدثون: السيد رشيد رضا، عبد الوهاب خلاف، محمد الطاهر بن عاشور، علال الفاسي، محمود شلتوت، محمد أبو زهرة، عبد المجيد النجار، أحمد الريسوني، طه جابر العلواني، عمر عبيد حسنه، عبد الله بن بية، عبد الكريم حامدي... وغيرهم.

٢ – استثمار هذا العلم ومناهجه وعطاءاته في نجاح الداعية والدعوة.

٣ – الاستفادة من هذا العلم أثناء التعامل مع جمهور المدعوين، حيث لكل منهم خطابه.

٤ – إعادة قراءة وفهم وتحليل واستيعاب الأطر المرجعية المقدسة (الكتاب، السنة) قراءة تراثية علمية ومنهجية شاملة، بهدف معرفة خلاصات وفهومات السلف الصالح لهما (الصحابة، التابعون، وتابعيهم بإحسان)، وفهم واستيعاب التراث العلمي الإسلامي وتراكماته المعرفية المختلفة عبر العصور، بغرض توظيفه في بناء الخطاب الإسلامي المعاصر الدقيق والمنسجم والبناء والذي يستجيب لمتطلبات ونوازل الحضارة المعاصرة.

والله أعلى وأعلم.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
* المقدمـــــة:	٥
* الفصـــل الأول: المـــدخل والإشـــكالية المركزيـــة والتعريفـــات الاصـــطلاحية	١٥
* الفصل الثاني: قيمة علم المقاصد وفقه الواقع.. وأثرهما في نجاح العمل الدعوي	٦١
* الفصل الثالث: حوار النملة ونبي الله سليمان عليه الصلاة والســـلام.....	١٩١
* الخاتمــة والتوصـيات:	٢٠٣
* الفهـــــرس:	٢٠٥

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

هاتف:	**٤٤٧٠٠٦١٩**
فاكس:	**٤٤٤٤٧٠٢٢**
برقياً:	**الأمة – الدوحة**
ص.ب:	**٨٩٣ – الدوحة – قطر**

موقعنا على الإنترنت:

www. sheikhali-waqfiah.org.qa
www.Islamweb.net

E.Mail:M_Dirasat@Islam.gov.qa

بتمويل الإدارة العامة للأوقاف

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

إدارة البحوث والدراسات الإسلامية

جائزة الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني

الوقفية العالمية المحكَّمة

إسهامًا في تشجيع البحث العلمي والارتقاء الثقافي الفكري، والسعي إلى تكوين جيل من العلماء، تطرح لعامها الرابع عشر موضوع:

الزكاة .. والتنمية

قيمة الجائزة (٢٠٠) ألف ريال قطري

برعاية الإدارة العامة للأوقاف

أوقاف AWQAF
الإدارة العامة للأوقاف
General Directorate of Endowments

شروط الجائزة:

١ - أن يكون البحث قد أُعدّ خصيصًا للجائزة.

٢ - أن تتوفر في البحث شروط البحث العلمي.

٣ - أن يلتزم الباحث بالمحاور المعلنة جميعها.

٤ - يُقدم البحث باللغة العربية من ثلاث نسخ مطبوعة، ومخزنة على قرص (CD) مرفق بالبحث، إضافة إلى ملخص باللغة الإنجليزية، إن أمكن.

٥ - لا يقل حجم البحث عن (٢٠٠) صفحة (A4)، حوالي: (٦٠,٠٠٠) كلمة بخط (Traditional Arabic) بحجم (16).

٦ - تحجب الجائزة في حالة عدم ارتقاء البحوث للمستوى المطلوب.

٧ - يجوز اشتراك باحثَيْن أو أكثر في كتابة بحوث الجائزة.

٨ - تسحب قيمة الجائزة، إذا اكتشف أن البحث مخالف لبعض شروط الجائزة.

٩ - لا تُمنح الجائزة للفائز مرة أُخرى إلا بعد مرور خمس سنوات.

١٠ - التزام الباحث الفائز باستدراك ملحوظات المحكمين.

١١ -على الباحث أن يرفق نبذة عن سيرته الذاتية، ونسخة مصورة عن جواز سفره.

*** ترسل البحوث بالبريد المسجل على العنوان التالي:**

ص.ب: ٨٩٣ – الدوحة – قطر

لمزيد من الاستفسار:

هاتف: ٤٤٧٠٠٦١٩(٩٧٤+) – فاكس: ٤٤٤٤٧٠٢٢

البريد الإلكتروني: **M_dirasat@islam.gov.qa**

موقعنا على الإنترنت: www.Islamweb.net

كتاب الأمة
سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدراة البحوث والدراسات الإسلامية - قطر
ص.ب :٨٩٣ الدوحة - قطر

من شروط النشر في السلسلة

- أن يهتم البحث بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة، ومشكلاتها، ويسهم بالتحصين الثقافي، وتحقيق الشهود الحضاري، وترشيد الأمة، في ضوء القيم الإسلامية.
- أن يتسم بالأصالة، والإحاطة، والموضوعية، والمنهجية.
- أن يشكل إضافة جديدة، وألا يكون سبق نشره.
- أن يُوثق علميًا، بذكر المصادر، والمراجع، التي اعتمدها الباحث مع ذكر رقم الآيات القرآنية، وأسماء السور، وتخريج الأحاديث.
- أن يبتعد عن إثارة مواطن الخلاف المذهبي، والسياسي، ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق.
- أن لا تقل عدد الكلمات عن (٣٠) ألف كلمة ولا تزيد عن (٣٥) ألف كلمة.
- يفضل إرسال صورة عن البحث، لأن المشروعات التي ترسل لا تعاد، ولا تسترد، سواء اعتمدت أم لم تعتمد.
- ترسل السيرة الذاتية لصاحب البحث.
- تقدم مكافأة مالية مناسبة.

هذا الكتاب.. جهد بحثي، لتأكيد الحاجة لعلمي المقاصد وفقه الواقع والمحل والتنزيل في مجالات ومضامين وميادين صناعة الخطاب الديني عموماً والدعوي خصوصاً، باعتبارهما قيمة محورية ومركزية في صميم المنظومة المعرفية الشرعية الإسلامية، وأنهما يشكلان أهم ركنين في عملية التكوين والإعداد الفكري والمعرفي والمنهجي والقيمي والأخلاقي والتربوي الديني للدعاة والقائمين على تشكيل وصياغة الخطاب الدعوي، ونظراً لخصوصيتهما في فهم الدين وتحليل ظاهرة التدين، ودورهما في زيادة تأصيل وحكمة وحنكة وثقافة ومنهج الداعية، ومعرفة المناهج المثلى للوصول إلى جمهور المدعوين والتأثير فيهم.

ويطرح الكتاب، الذي يمكن تصنيفه في إطار الدراسات الدعوية الوصفية التحليلية الاستنتاجية النظرية التطبيقية، التي تتمحور أساساً حول دور وأثر وقيمة علم المقاصد وفقه الواقع في نجاح العمل الدعوي الإسلامي، يطرح مجموعة من التساؤلات والإشكالات البحثية، التي تتمحور حول تساؤل مركزي مفاده: هل يمكن اعتبار العمل والخطاب الدعوي القائم اليوم، عملاً وخطاباً دينياً، ناجحاً وموفقاً في غياب علمي المقاصد وفقه الواقع والتنزيل؟

ومن ثمّ، يدعو الباحث إلى أهمية إعادة قراءة وفهم وتحليل واستيعاب الأطر المرجعية المقدسة (الكتاب، السنة) قراءة تراثية علمية ومنهجية شاملة، بهدف معرفة خلاصات وفهومات السلف الصالح لهما، وفهم واستيعاب التراث العلمي الإسلامي وتراكماته المعرفية المختلفة عبر العصور، لتوظيفه في بناء الخطاب الإسلامي المعاصر، الذي يستجيب لمتطلبات ونوازل الحضارة المعاصرة.

والكتاب بمجمله دعوة إلى ضرورة حِذْقِ الداعية لعلوم الشريعة عموماً، وتَمَهُّرِه في علم مقاصد الشريعة وفقه الواقع والمحل والتنزيل خصوصاً، واستثمارهما ومناهجهما وعطاءاتهما لإنجاح العمل الدعوي، لاسيما أثناء التعامل مع جمهور المدعوين.

موقعنا على الإنترنت: www. sheikhali-waqfiah.org.qa
www. Islamweb.net
البريد الإلكتروني : E. Mail:M_Dirasat@Islam.gov.qa